دكتور صلاح عبد

الرحيل في تاريخ الشعر العربي

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة

مقـــــدمة

تاريخ الشعر العربى هو الاتساع فى آفاق الأرض وبالتالى فى آفاق الفكر ، وهذا الاتساع حققته حركة هذا الشعر التى تتمثل فى رحيله الدائم ، ذلك الرحيل الذى شمل حياته منذ العصر الجاهلى إلى العصر الحديث ، فأهله فى موطنهم بالجزيرة العربية كانت الرحلة طابع حياتهم ، وأيضاً طابع فنهم الأول حيث شكلت المقدمة الطللية التى يبكى فيها الشاعر الراحلين أساساً له ومحــوراً .

ويرحل الشاعر مع من رحلوا من الجزيرة فى الفتوح الإسلامية إلى شرقها فى آسيا ، وإلى غربها فى شمال إفريقيا وصولا إلى أوربا فى الأندلس .

وهذا هو رحيل الشعر العربى فى العصور الوسطى ، لكن له فى العصر الحديث وإلى العالم الجديد رحيلا أبعد هو رحيل عرب الشام إلى الأمريكتين فيما عرف بشعر المهاجر الأمريكية .

وفى كل هذه الأصقاع فى العصور الوسطى والحديثة فى آسيا وإفريقيا وأوربا والأمريكتين نمت خمائل الشعر العربى ، وصدحت بلابله متأثرة بالأجواء الجديدة المحيطة بها ، فللشعر العربى فى كل صقع من هذه الأصقاع طعم ولون ، بل ألوانه تختلف عنها فى غيرها .

على أن هذا لم يكن كل شىء فى رحيل هذا الشعر ، فمن الطريف أنه كتب على أقطابه أن تكون حياتهم أو معظمها رحيلا مستمراً أيضاً ، ففضلا عن رحيل شعراء العصر الجاهلى الذى كان طابعاً فرضته ظروف البيئة ، نرى حياة كبار الشعراء فى العصر العباسى رحيلا كثيراً ، وتكون رحلة أبى نواس إلى مصر مجرد بداية وقطرة من غيث لرحيل شعراء هذا العصر إلى مراكز السلطان الاقتصادى والسياسى فى المشرق العربى والإسلامى ، وخاصة حين استقلت ولايات الدولة عن بغداد فعلا ، وتنافس ملوكها وأمراؤها

فى استقطاب رجال الأدب والعلم ، وتكون حياة أبى الطيب المتنبى مع أمله السياسى فى عودة العرب إلى سابق مجدهم فى الحكم ، تكون هذه الحياة رحيلا لا يهدأ بين بلدان المشرق من العراق إلى الشام إلى مصر ، فإلى العراق مرة أخرى ، فإلى فارس ، بل إن رحيله الكثير بين مدن الشام لما يلفت النظر . ولم تكن إقامته فى حلب التى امتدت تسع سنوات هدوءاً واستقراراً ، فقد كان سيف الدولة نفسه على رحيل دائم فى حروبه التى شهد المتنبى أكثرها .

وحين تتدهور الأحوال العامة فى الدولة العربية الإسلامية يكون لشعراء المديح النبوى رحيل لا ينقطع إلى مركز الرسالة الإسلامية ، إلى المدينة ومكة ، برغم سوء حالة الأمن فى تلك العصور ، بل إن هذه الحالة كانت تزيد الشعراء شوقاً للرحيل وشعرهم توهجاً بهذا الشوق .

وحين نصل إلى العصر الحديث وإلى البارودى — باعث نهضة الشعر العربى فى هذا العصر — نرى للرحيل أعظم الأثر على حياته وشعره ، وخاصة رحيله الذى شقى به كل الشقاء إلى منفاه فى سرنديب ، حيث قضى أكثر من سبعة عشر عاماً . أما شوقى — أنضج ثمرة فى شجرة الشعر الحديث — فمع نفيه عدة سنوات إلى الأندلس نرى عنده جانباً بالغ الأهمية فى مجال الرحيل هو قصده إلى الرحيل قصداً من أجل إثراء فنه بما تقع عليه عيناه من مجالى الطبيعة الفاتنة ، وهو نفسه يصرح بهذا القصد فى شعره ، فهو من أجل بنات شعره يسير فى بر وبحر متلمساً الجمال فى الطبيعة :

لأجلك سرت فى بر وبحر   وأنت الدهر أنت بكل قطر
حننت إلى الطبيعة دون مصر   وقلت لدى الطبيعة أين مصر

ونجد هذا الجانب عند على محمود طه الذى أكثر من الرحلة إلى بلاد أوربا فى سويسرا والنمسا وفرنسا وغيرها لنفس الغاية مما يعد شيئاً جديداً وطريفاً فى تاريخ الشعر العربى .

هذا البحث إذن ليس عرضاً لجانب من جوانب الشعر العربى ، وإنما هو فى الواقع برهان على نظرية الحركة فيه ، تلك الحركة المستمرة التى إن تكن مست كيانه الموسيقى فى بعض الأحيان ، كما حدث فى موشحات الأندلس ، والتنوع الموسيقى المشابه لها فى المهجر ، إلا أن هذا الكيان الموسيقى الدقيق الوفير المتميز ظل خالداً على الدهر ومعه الطابع الأساسى الآخر لهذا الشعر ، وهو أنه شعر التعبير عن الذات الإنسانية فى تفاعلها مع المحيط بها .

أكتوبر ١٩٨٤

صلاح عيد

١ ـ الرحيل فى مهد الشعر العربى

إن أول وأبرز مظهر للرحيل وأثره فى القصيدة الجاهلية هو المقدمة الطللية الشهيرة ، فهذه بقايا المنازل التى كانت عامرة بأهلها — وخاصة محبوبة الشاعر — قد أصبحت أثراً بعد عين .. أثراً يبعث فى النفس أقسى وأقصى شجن وأسى ، وليس هناك شىء يحز فى النفس الإنسانية أو نفس الحى بوجه عام أشد من فراق الحى الذى أحبه وتعلق به ، فإذا كانت هذه النفس نفس شاعر فلنا أن نتصور مدى وقع موقف الفراق ومايليه عليها ..

هذه البيئة الصحراوية كان الرحيل المستمر طابعها الأساسى ، وهل هناك أكثر من هذه الخيام المهيأة على الدوام للرحيل وراء موارد الحياة القليلة فى هذه البيئة الفقيرة فى معظمها ؟ تلك التى لا يبقى بعدها إلا الثمام وإلا موقد النار من تلك الآثار التى يشعل ضمور الحياة العامرة فيها جذوة الألم اللاهب فى نفس الشاعر ، وبمقدار عمق السكون فيها تصطرع فى هذه النفس موجات الحزن اصطراعها فى بحر خضم .

هذه هى طبيعة هذه البيئة فى معظم أجزاء الصحراء العربية ، رحيل دائم لا مفر منه ، وحزن دائم مصاحب لهذا الفراق ، ولهذا احتل حزن الفراق هذا المكان وهذه المكانة فى الفن الأول لأصحابها وهو الشعر ، بل لعلى أذهب إلى أن انبعاث الشعر على هذه الألسنة بهذه الوفرة وهذا الاهتمام إنما كان نابعاً من هـذا الحزن ومداوياً له فى نفس الوقت ، وهـذا الحزن هو الذى أضفى على تلك النفوس — التى لم تخل من قسوة الصحراء — تلك الرقة والحساسية التى تعيش فيها جنباً إلى جنب مع نزعة الحرب وما تصاحبها من قسوة شديدة ، وهاتان النزعتان المختلفتان يمثلهما شعر الحب والحرب ، وهما تقريباً كل الشعر الجاهلى .

الحب هو فن الحياة واستمرارها ، والحرب هى فن الموت أو انقطاع الحياة ؛ لأن المحارب الذى يسعى لسلب غيره الحياة يغامر بحياته أيضاً ؛

فأولها صناعة الحياة ، والآخر صناعة الموت ، وتجاورهما ليس تجاور نقيضين ، لأن الموت ظاهرة من ظواهر الحياة ذاتها ، ولكن وضع المقدمة الطللية فى القصيدة الجاهلية التقليدية معناه أن الفراق كان الهاجس الأول والأهم عند أهل هذه الصحراء .

وحتى أولئك الشعراء الذين لم يعانوا فى موقف ما لوعة الفراق فى العصر الجاهلى ، كزهير فى دفاعه عن السلام فى معلقته ، ظلوا هم أيضاً يبدأون قصائدهم بهذا الهاجس الأول فى نفس العربى ساكن الصحراء ، بل لقد ظل هذا الهاجس — على سبيل التقليد — يحتل مقدمات القصائد العربية قروناً طويلة بعد العصر الجاهلى وبعد أن تغير الزمان والمكان .

إن الرحلة هى محور الحياة الطبيعية فى الصحراء ، وهى محور الشعر المعبِّر عن هذه الحياة أيضاً .. رحلة المحبوبة ورحلة المحب الذى تأتى الرحلة عنده من قبيل التداوى بنفس الداء ، فالرحلة هى داؤه وهى دواؤه .

إن الشاعر لا يقوى على الاستمرار فى الإقامة فى هذا المكان الذى خلا من المحبوبة وأصبح مثيراً لآلام الذكرى فليرحل على الفور ، والبيئة نفسها تساعد على اتخاذ القرار الفورى بالرحيل ، وقد يكون رد الفعل إسرافاً فى حياة اللهو والمجون كما نرى عند الأعشى . لكن المحب الصادق الهوى لا يملك إلا ردّ الفعل السابق ، فيصف رحلته هو أيضاً على ناقته السريعة التى تجوب به هذه المهامه الشاسعة الموحشة واصفاً إياها ، والحيوان القوى السريع الذى يحمله متأملا فى نفسه ومعبراً عن قيمه وتجاربه وأهدافه فى الحياة .

وهكذا يتجاوز الرحيل المكان ، والمكانة الأولى فى القصيدة الجاهلية فى أغلب الأحيان ليصبح محور هذه القصيدة أو الأساس الذى تبنى عليه أفكارها وموضوعاتها حين يتبع رحيل المحبوبة رحيل الشاعر المحب فيما نجده عند طرفة ولبيد وعنترة والحارث بن حلزة والنابغة ، وعند غيرهم من شعراء العصر الجاهلى .

ودعنا الآن نقترب من نصوص الشعر الجاهلى التى بعثها وأثارها رحيل

المحبوبة ، وهى لا تتعدى فى بساطتها المثير وهو الرحيل ، والاستجابة الداخلية أو النفسية وهى الأسى ، ثم الاستجابة الخارجية المتمثلة فى رحيل الشاعر المحب نفسه ، والحق أنه مهما قيل عن الانتحال فى الشعر الجاهلى فإن هذا الشعر الذى تشع منه حرارة الصدق وبساطته وإيحاؤه يجعلنا نؤمن بانبثاقه عن أعماق هذه البيئة التى كان الحزن فيها قريناً طبيعياً للفراق الدائم ، ومع كل جزئية من جزئيات هذا الرحيل الذى يصوره الشاعر نحس نبرة الأسى العميق ، فها هى الديار المهجورة قد صارت إلى العفاء وأصبحت أثراً بعد عين عند لبيد العامرى :

عفت الدِّيار محلُّها فمقامها ... بمنى تأبَّد غولهـا فرجامُها
فمدافع الريان عُرِّىَ رسمُها ... خلقاً كماضَمِن الوُحِىَّ سلامُها(١)

ومع أول كلمة فى هذا الشعر ينتقل إليك الإحساس الصادق بالحزن العميق ، وهذه الحسرة التى تغلف هذه الكلمات بستر شاحب رقيق مع ما فيها من نبرة طبيعية للبيئة التى صدرت عنها ، والشاعر يذكر منى والغول والرجام ذكراً تتمثل فيه هذه الحسرة ويقرنها بمسايل الماء التى خلعت لباس الحياة والأنس وباتت أقرب إلى نقش قديم فى صخر .

وها هى الأعوام قد مرت على بقايا تلك الديار لا يغشاها إلا قطرات المطر المنهلة عليها بالنهار والليل حتى نبتت فيها بعض تلك النباتات التى اجتذبت إليها حيوانات الصحراء من ظباء ونعام وأبقار وحشية :

دمنٌ تجرَّمَ بعد عهد أنيسها ... حجج خلون حَلالُها وحرامُها
رزقت مرابيع النجوم وصابها ... ودق الرواعد جودُها ورهامُها
من كل ساريةٍ وغادٍ مُدْجِنٍ ... وعشيةٍ متجاوبٌ إرزامُهـا
والعينُ ساكنةٌ على أطلائها ... عُوذاً تأجَّل بالفضاء بهامُها

ولعلنا نلاحظ أننا هنا لسنا أمام خيام طويت ، وإنما نحن أمام آثار ديار

---

(١) الزوزنى : شرح المعلقات السبع : ١٤٨

بنيت وتهدمت ، لكن ظواهر الطبيعة تأبى إلا أن تجددها ليتجدد الحزن بمرآها . إنها كالكتاب الذى تجدد الأقلام ما عفا من خطه ، وكالوشم الذى يعاد نقشه من جديد :

وجَلا السُّيول عن الطلول كأنَّها ... زبَرٌ تُجِدّ متونهـــا أقلامُها

أو رجع واشمةٍ أسفّ نؤورُها ... كففاً تعرّض فوقهن وشامُها

وكل من وقف أمام دار مهجورة كانت عامرة يوماً بأهلها يحس تلك الأحاسيس التى تعتلج فى نفس هذا الشاعر وغيره من شعراء هذه الصحراء الذين كان عليهم أن يعانوا ألم الفراق مع كل رحيل ، وهو إذ يقف أمام تلك الأطلال يحس أن سكونها إنما ينطق بالكثير والكثير ، وها هو ذا يهم بالحديث معها ثم يستدرك على نفسه . فلهذه الآثار الصماء كلامها الخاص الذى ينطق به حالها :

فوقَفْتُ أسألُها وكيف سؤالنا ... صُمًّا خوالِدَ ما يبين كلامُها ؟

لقد خلعت ثياب الأنس والبهجة بعد أن غادرها الجميع وغادروا كل ما فيها من مظاهر الحياة :

عَرِيَتْ وكان بها الجميع فأبكَرُوا ... منها وغُودِر نؤيهـــا وثمامُها

إن هذا « الخبر » وما سبقه من وصف لحال هذه الأطلال يغنى كل الغناء عن الإبانة عن مشاعر الحزن فى نفس الشاعر .. إنه ليس فى حاجة إلى أن يخبرنا عما بنفسه ، إنما يكفيه أن يصف ماجرى وما يرى .. وهذا الوصف ينقل إلينا إحساسه بكل دقة وحرارة وعمق .. إنه رسام أصيل بالكلمات لمنظر يبعث الأسى فى النفس ، وكما أن ريشة الرسام تحمل ذبذبات إحساسه مع المنظر الذى رسمه ، فهذا هو تماماً ما فعله هذا الشاعر الجاهلى البارع الحكيم وغيره من شعراء العصر الجاهلى ، أقول ذلك لأننا نلتقى فى العصور التالية بشعراء يسرفون فى وصف دموعهم التى سالت أمطاراً وجرت أنهاراً أمام الديار الخالية للحبيبة الراحلة ، مع أنهم كانوا مجرد مقلدين فى هذا المجال .

أما شاعرنا هذا فقد رأى أن من الفضول أن يتحدث عن حزنه ، ولو فعل لهبط بمستوى عمله الفنى كثيراً . وها هو ينتقل من وصف المنظر الساكن الجامد إلى وصف ما سبقه من حركة الرحيل ، فلا يذكر إلا كلمة واحدة عن انفعاله المباشر وهى شوقه إلى تلك الظعائن وقد دخلن الهوادج كما تدخل الظباء كنسها ، ومرة أخرى ينوب الوصف المفصل لحركة الرحيل عن أى وصف مباشر لألم النفس .. وهذه الصورة الحية تلتقط صرير خشب الخيام ، وما على الهوادج من أستار تظل عصيها وحركتها السريعة فى الرحيل :

شاقتك ظُعْن الحىّ حين تحملوا ... فتكَنَّسوا قطناً تصرُّ خيامُها
من كل محفوف يُظل عصِيَّه ... زَوجٌ عليـه كِلَّةٌ وقرامُها
زَجلاً كأن نعاج تُوضح فوقها ... وظِباء وجْرَةَ عُطَّفاً آرامُها
حفزت وزايلها السَّراب كأنها ... أجزاع «بيشة» أثْلها ورِضامُها

لقد سار الركب ومعه « نوار » وها هى ذى أصبحت بعيدة تلك المرية التى جاورت الآن أهل الحجاز .. لقد تقطعت الأسباب بينها وبين الشاعر العاشق ولم يعد له أمل فى الوصال ، وهو يستمر فى رسم صورة بعاد المحبوبة بالتفصيل عندما يذكر المزيد عن الأماكن التى حلت بها بعد رحلتها :

بل ما تذكَّر من « نوار » وقد نَأَتْ ... وتقطعَتْ أسبابُها ورمامُها
مرِّيَّة حلَّت بفَيْدَ وجاورت ... أهل الحجاز ، فأَينَ منك مرامُها؟
بمشارق الجبلَيْن أو بمحَجَّر ... فتضمَّنتهما فردَةَ فرخامُها
فصوائقٌ إن أيْمَنَتْ فَمَظَنَّةٌ ... منها وِحاف القهر أو طلخامُها

لم يبق إلا أن يقطع الشاعر البدوى العاشق أمله فى الوصال حتى لا يعذب نفسه فى غير طائل ، وهو لا ينسى أن يقف هنا موقف الحكمة والنصح ، فشرّ عاقد للصلة بينه وبين غيره من يقدم على قطع هذه الصلة ، وليكن المرء أكثر مجاملة مع من يجامله ، وعليه أن يستبقى هجره فلا يعجل به إذا بدا له شيء من جانب صاحبه يوهى ما بينهما من صلة :

فاقطع لُبَانَة من تَعرّض وصله ولشَرُّ واصل خُلّةٍ صَرّامُها
وأحبِ المُجامل بالجزيل وصرمه باقٍ إذا ظلعت وزاغ قِوامُها

لقد مرّ الشاعر هنا بالعناصر الأساسية الثلاثة فى تلك المقدمة الطللية التى يتمثل فيها هاجس العربى الأول فى هذه البيئة عديمة الاستقرار وهو فراق أحبته ، وأول هذه العناصر ذلك المشهد المثير لكوامن الأسى فى النفس وهو بقايا ديار الأحبة ، وثانيها : مشهد الرحيل نفسه ، وثالثها : بعد الشقة بينه وبين من يحب ، إنها مشاهد تتتابع تتابعاً منطقياً ، فمنظر الديار المهجورة يستدعى ساعة الرحيل الأليمة ، وما بعد هذا الرحيل من بعدٍ فى المسافة هو مصدر الأسى واليأس معاً ، ولابد للشاعر من استجابة ، وهى استجابة تكون غالباً كما أسلفنا من نمط مداواة الداء بدواء من جنسه ، فرحيل المحبوبة دواؤها رحيل المحب ، وهذا الرحيل الأخير يتم على ناقة قوية سريعة الحركة تجوب به هذه الصحراء الموحشة القاسية على الإنسان والحيوان معاً ، وهو يروى لنا قصة هذه الرحلة بالتفصيل كما روى لنا قصة رحيل المحبوبة بالتفصيل ، يفعل هذا شاعرنا هنا ويفعله غيره من شعراء العصر الجاهلى .

فلنرحل الآن مع شاعرنا هذا الرحيل الشاق العنيف القاسى :

بطليح أسفارٍ تركن بقيةً منها فأحنق صلبها وسنامُها
فإذا تغالى لحمها وتحسّرَت وتقطّعت بعد الكلال خدامُها
فلها هبابٌ فى الزّمام كأنها صهباء راحَ مع الجنوب جهامُها

ولبيد كعادة الشعراء الجاهليين لكى يصور ما نال راحلته من تعب شديد فى رحلته الطويلة لم ينل من بأسها وقوتها ، لكى يفعل ذلك ، فهو يروى قصة ثور أو حمار وحشى أو بقرة وحشية واجهت فى هذه الصحراء القاسية موقفاً خطراً صعباً .

وشاعرنا هنا لا يكتفى بقصة واحدة ، إنما هو يروى قصتين إحداهما طريفة نادرة فى هذا المجال لأتان نالها تعب شديد بسبب غيرة العير عليها ،

هذا العير الذى عانى بدوره الكثير من اعتداء بقية الفحول عليه بسببها ، وهى بعد أن واصلته تتأبى الآن عليه تأبياً شديداً مما زاد فى حيرته وشكه وغيرته ، ويبدو أن ما كان بينهما من صلة سابقة قد أعطاه الحق فى أن يلزمها صحبته وأن يرهقها بالصعود إلى الأماكن العالية بعيداً عن أعدائه من بنى جنسه وأعدائه من الصائدين من بنى الإنسان ، وبعد أن قضيا عدة أشهر عانيا خلالها أشد المعاناة من قسوة البرد والجوع كان لابد لهما من أن يتدبرا أمرهما وأن يعزما على قصد مكان يواصلان فيه الحياة .

لكن هذا الشتاء القارس أعقبه فى جو الصحراء القارى صيف لاهب سدد إليهما من شدة الحرارة سهاماً ومن نباتاته القاسية شوكاً أدمى حوافرهما ، وإذا بهما يجدان من بعيد مكاناً ظليلا يأويان إليه ، ولكن أية ظلال ؟ إنها أشبه بدخان نار تضطرم اضطراماً تحت هـذه الحرارة اللافحة وهما يسرعان إليه ، لكن العير لا يزال شديد الغيرة على أتانه ، إنه لا يتركها تسير خلفه خشية أن تهرب ، بل هو يجعلها تسير أمامه ، وإذا بهما فى النهاية يتوسطان نهراً صغيراً وعيناً مملوءة بالماء يحيط بها نوع من النباتات الصحراوية وغابة من القصب بعض عيدانها قائم وبعضها صرعته قسوة الطبيعة وألقته أرضاً .

فناقة شاعرنا التى تحمله فى رحلته هذه أشبه بهذه الأتان ، وربما بهذا العير فى تلك المعاناة من قسوة الحياة الصحراوية :

أَو ملمعٌ وسقت لأحقبَ لاحه — طرد الفحول وضربها وكدامُها

يَعلو بها حدَبَ الإكام مسحَّجٌ — قد رابه عِصْيانُها وَوِحامُها

بأحزّة الثلبوت يربأُ فوقها — قفْرَ المراقبِ خوفُها آرامُها

حتى إذا سلخا جمادى ستّةً — جزآ فطال صيامه وصيامُها

رجعا بأمرهما إلى ذى مِرّةٍ — حصدٍ ونُجحُ صريمةٍ إبرامُها

ورمى دوابرها السفا وتهيّجت — ريح المصايف سومُها وسهامُها

فتنازعا سبطاً يطير ظلاله — كدخان مشعلة يشبّ ضِرَامُها

مشمولةٍ غلثت بنابت عرفجٍ — كدخان نار ساطعٍ أسنامُها

فمضى وقدّمها وكانت عادةً ... منه إذا هى عرّدت إقدامُها
فتوسّطا عُرْض السرىّ وصدّعا ... مسجورةً متجاوراً قلاّمها
محفوفةً وسط اليراع يُظلّها ... منه مصرّع غابةٍ وقيامُها

ويروى لنا لبيد القصة التاليـة مباشرة ، وهى قصة تبعث على ألم شديد ، وهو ألم يحسه من يوقن أن للحيوان نفس مشاعر الإنسان ، بل لقد ثبت بالبرهان التجريبى أن للنبات أيضاً مشاعره من خوف وحزن وغيرهما من المشاعر ، فالأحياء جميعاً تشترك فى المشاعر والعواطف . لمَ لا والخلية الحية بجيناتها الأربع واحدة فى جميع الأحياء مع تنوعها الكبير ؟

يحس الألم إذن بعمق أكبر من له مثل هذا اليقين باشتراك الأحياء جميعاً فى نفس المشاعر .. والشاعر يجعلنا بدقة وصفه وتفصيله نعيش صعوبة الحياة وقسوتها وشدتها فى هذه الصحراء المخوفة الرهيبة ، فنحن أمام بقرة وحشية تعرضت لمأساة فقدان ولدها حين أهملت بتركه وحيداً وراحت ترعى مع صواحبها .. لقد جعلهـا الشاعر تتسبب فى ضياع وليدها ليكون حزنها أشد وأقسى ، وإذا بها تبحث عنه وقد جنّ جنونها فى أنحاء المكان ، ويصدر عنها ذلك الصوت الرقيق الذى ينمُّ عن حزن عميق ، بينما وليدها ملقى على الأرض معفر بالتراب بعـــد أن تجاذبت أعضاءه تلك الكلاب أو الذئاب الرمادية التى لا تنقطع عن الصيد والافتراس ، لقد صادفت تلك الذئاب غرة من هذه الأم فأصابتها هذه الإصابة المفجعة ، لكن هذا لم يكن كل ما ألمّ بهذه البقرة الثكلى ، فقد انهمر عليها مطر غزير شديد فى تلك الليلة التى حجبت الغيوم نجومها ، وإذا بها تحاول أن تستتر من البرد والمطر بأغصان شجر لا تقيها برداً ولا مطراً ، بل انهالت عليه الرمال انهيالا ، بينما هى تعدو بشدة باحثة عن مأوى لها من غضبة الطبيعة وقسوتها ، وبينما هى تبدو كلؤلؤة منفرطة من عقدها يضئ الظلام بياضها الناصع .

ويطلع الصباح على البقرة بعد تلك الليلة القاسية ، وتنفض عنها ما انهال عليها من ثرى رطب طيلة الليل ، وتبدأ من جديد فى البحث عن وليدها ،

ويستمر بحثها أسبوعاً كاملا وهى أشد ما تكون هلعاً وحيرة وجزعاً ، وأخيراً تيأس المسكينة ويتملكها من الحزن الشديد ما يحيل ضرعها الممتلىء لبناً إلى جفاف وبلى ، لتبدأ فصلا جديداً من فصول مأساتها ، فقد تناهى إلى سمعها صوت بشرى لم تتبين مصدره ، وإذا هى تجزع أشد الجزع وتعدو عدو الحائر الواله وهى لا تدرى أين تذهب .. إنها تعدو إلى الأمام تارة ، وإلى الخلف تارة أخرى ، وها هم الرماة قد أرسلوا كلابهم الجائعة المسترخية الآذان التى ألبسوها تلك القلائد الحديدية والجلدية ، ولا تجد البقرة بداً من منازلة مهاجميها بقرنها الحاد كأنه الرمح السمهرى وقد أيقنت أنها إذا لم تنازلها فقد حمّ قضاؤها ، وها هى ذى قد انتصرت وأمكنها أن تطعن تلك الكلاب طعنات نافذة أسالت دماءها ، وعند نهاية هذه القصة يكون الشاعر قد عمق فى أذهاننا صورة الناقة التى حملته فى رحلته هذه بما نالها من جهد ، وما عانته من عذاب شديد ، وهى مع ذلك لا تزال ذات بأس شديد وقوة خارقة :

أفتلك أُمّ وحْشِيّة مسبوعةٌ ... خذلت وهادية الصوار قوامُها
خنساءُ ضيَّعت الفرير فلم ترم ... عُرض الشقائق طوفها وبغامُها
لمعفَّرٍ مَهدٍ تنازع شلوه ... غبسٌ كواسب لا يمنّ طعامُها
صادفن منها غرّةً فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سِهامُها
باتت واسبل واكفٌ من ديمةٍ ... يروى الخمائل دائماً تسجامُها
يعلو طريقة متنها متواترٌ ... فى ليلةٍ كَفر النجومَ غمامُها
تجتاف أصلاً قالصاً متنبّذاً ... بعجوب أنقاءٍ يميل هيامُها
وتضىءُ فى وجه الظلام منيرةً ... كجمانة البحرى سُلّ نظامُها
حتى إذا انحسر الظلام وأسفرت ... بكرت تزل عن الثَّرَى أزلامُها
علهت تردد فى نهاد صعائدٍ ... سبعاً تؤاماً كاملاً أيامُها
حتى إذا يئست وأسحق حالقٌ ... لم يُبله إرضاعُها وفطامُها
فتوجَّست رزّ الأنيس فراعها ... عن ظهر غَيْب .والأنيس سقامُها

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه	مولى المخافة خلفُها وأمامُها
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا	غضفاً دواجن قافلاً أعصامُها
لتذودهن وأيقنت إن لم تذُد	أن قد أحمّ من الحتُوف حمامُها
فتقصّدت منها كساب فضرّجت	بدم وغُودِر فى المكر سخامُها

ولبيد — وقد فرغ من هذه القصة الثانية — قد عمق فى أذهاننا صورة ناقته التى جمعت إلى ما لقيته نحو رحلته الطويلة من إجهاد وفزع ذلك البأس الشديد والقدرة على قهر الصعاب :

فبتلك إذ رقص اللوامع فى الضُّحى

واجتاب أرْدِية السَّـراب إكامُها

أقضى اللُّبانة لا أُفرّط ريبةً

أو أن يَلُوم بحاجةٍ لُوّامُهـا

فهو يمثل هذه الراحلة الفتية يجوب تلك المهامه التى تلبس فيها الإكام أردية السراب ، غير مبال بحرارة الشمس اللاهبة ، متجنباً أى لوم أو شك فى صدق عزيمته . وما صدق العزيمة هنا إلا أنه استطاع أن يداوى مافى قلبه من جراح سببها رحيل « نوار » لقد داواها بتلك الرحلة الطويلة الشاقة التى كانت رداً فورياً وقوياً على رحلة « نوار » ، و « نوار » بلا شك تعلم أنه يصل ما بينه وبين أحبسابه ، ويقطع هذه الصلة متى أراد ، ولابد أنها تعلم كذلك قدرته الفائقة على ترك تلك الأمكنة التى لا يجد فيها ما يرضيه ، ولم لا وهو صاحب العزم القوى الذى لا يثنيـه عن بلوغ مراده ثان ، ولو كان فى ذلك القضاء عليه :

أوَلَمْ تكن تـدرى « نوار » بأننى

وَصّال عقـد حبائلٍ جذّامُها ؟

ترّاك أمكِنَـةٍ إذا لم أرضهـا

أو يعتلقْ بعض النفوس حمامُها

وهاهى الألفاظ ومعانيها ترقّ بعد خشونة، وتعذب بعد غلظة وجفاف فقد انتقلنا من جوّ الرحلة المخوّفة الشاقة فى هذه الصحراء الموحشة القاسية إلى جوّ العتاب الرقيق، وإن ظهر فيه حزم الرجل وقدرته على احتمال الفراق، بل قدرته على أن يبدأ هو بالفراق إذا أراد، لكن ذلك ليس خصلة شاعرنا الوحيدة، فهو معاقر للخمر، يشترى أفضلها بأغلى الأثمان، وهو كذلك بطل فى الروع، وهو كريم معطاء فى مواضع الكرم، وكل ذلك كما نرى متضمن فى إطار رحلة الشاعر رداً على رحلة المحبوبة، وما أسرع ما يلجأ الإنسان فى هذه البيئة إلى الرحيل عند شعوره بالمعاناة، وخاصة عندما ترحل المحبوبة. إننا نرى ذلك عند الحارث بن حلزة فى مطوّلته :

غير أنّى قد أستعينُ على الْهـــمّ إذا خف بالثّوِىِّ النجاءُ
بزفوفٍ كأنّها هقلــة أم رئالٍ دَوِيّــة سقفـــاءُ

وهذا هو شأن طرفة بن العبد :

وإنّى لأَمضى الْهَمّ عند احتضاره
بعوجاءِ مرقالٍ تروحُ وتَغْتَــدِى
أَمُونٍ كأَلواح الإران نسأْتها
على لاحبٍ كأَنه ظهر برجــدِ

وإذا كان هناك من الشعراء العشاق من نفض يديه يأساً من لقاء المحبوبة كما فعل شاعرنا « لبيد » فإن لعنترة العبسى شأناً آخر، فهو يرجو رحيلا يقربه من محبوبته النائية :

هــل تبلغنّى دارها شدنيةٌ لعنت بمحروم الشراب مُصَرّمِ
خطارةٌ غبّ السُّرَى زيّافَةٌ تطس الإكام بذات خف ميثَمِ
وكأَنما تطس الإكام عشيَّةً بقريب بين المنسمين مصلمِ

إنه يمتطى ناقة قوية سريعة تصل ليلها بنهارها فى سير دائب دون أن ينال ذلك من نشاطها ومرحها .

لقد تعودنا إذن أن نرى الشاعر العاشق يلجأ إلى الرحيل على إثر رحيل محبوبته ، ولكننا نصادف هنا حالة نادرة نوعاً هى حالة الشاعر الذى يرحل هو عن محبوبته ، وهنا تنعكس الآية ويكون الحزن والألم من نصيب المرأة التى تفاجأ بالمحبوب وهو يستعد للرحيل ، إنهما لم يتبادلا كلمة واحدة ، ولكن عيناها عاتبتان عليه أشد العتب لأنه هو الذى اختار الرحيل ، أليس هو الرجل الذى يملك من أمر مقامه ورحيله ما لا تملك المرأة ؟ إن هذا الموقف موقف نادر فى الشعر الجاهلى .

ومن هنا تأتى أهمية رائية النابغة ، تلك القصيدة البديعة الرائعة . والشاعر يبدؤها بالحديث عن ديار « نعم » التى أقفرت بعد رحيلها كعادة الشعراء الجاهليين :

عُوجوا فحيّوا لِنعم دمنة الدار ... ماذا تحيّون من نؤى وأحجارِ
أَقوى وأقفر من نعمٍ وغيّره ... هوج الرِّياح بهابى الترب موّارِ
وقفت فيها سراة اليوم أَسْأَلها ... عن آل نعمٍ أموناً عَبْر أسفارِ
فاستعجمت دار نعمٍ لاتُكَلِّمنا ... والدار لو كَلَّمتْنا ذات أخبارِ
فما وجدت بها شيئاً أَلُوذُ بِه ... إلاَّ الثمام وإلاَّ مَوْقِدَ النَّارِ

فالشاعر يقف أمام الدار الخالية من أصحابها هذا الموقف المتكرر فى أرض الرحيل المستمر والفراق المتجدد ، وهو يحس أنها تنطق بأشياء كثيرة ، والشاعر الشاعر يشهد من الأشياء ما لا يشهد غيره ، إنه يعاملها كما يعامل الأحياء ، ولأن الشعر عودة إلى طفولة الفكر وربما صدقه الغريزى فإنه يرى الحياة فيما لا حياة له ، وشاعرنا يستدرك على نفسه حين يدعو صحبه إلى تحية الدار ، ثم يتساءل هذا التساؤل الساخر المرير : ماذا تحيون من نؤى وأحجار ، وهذا مطلع يستمد جماله وسحره من بساطته وتلقائيته .

لقد خلا المنزل من « نعم » ، وقد تعاقبت عليه من ظواهر الطبيعة فى هذه البيئة ما غيره ونقله من حال إلى حال ، ومع هذا فالشاعر يعود مرة أخرى إلى طفولة الفكر ، أو يعود إلى الشعر فى أصفى حالاته وأقربها إلى طبيعته

ليقف « سراة اليوم » أمام الدار وكأنه نسى ما قاله منذ قليل من أنها مجرد نؤى وأحجار .. إنه يسألها عن « نعم » وأهلها الذين أبعدتهم تلك الأسفار الطويلة ، لكن الدار تستعجم ، إنها تتكلف العجمة تكلفاً حتى لا تكلمه ، فهو الذى هجر صاحبتها كما سنرى ، مع أن لديها الكثير والكثير مما يمكن أن تقوله ، وأخيراً لا يجد الشاعر بداً من استنطاقها ، فيلجأ إليها معايشاً لها كما كانت صاحبته تفعل ، وهو لا يجد إلا تلك البقايا من الثمام ومن موقد النار .

وننتقل مع الشاعر هنا إلى ذكرى الأيام السعيدة الخالية ، لقد استمتع مع محبوبته بأجمل أيامهما فى هذا الموضع ، وكان بينهما ما يكون بين أشد المحبين ارتباطاً وإخلاصاً وودًّا من تبادل الأسرار التى يكتمها كل منهما عن الناس إلا عن صاحبه . لقد كانت أواصر المحبة التى تربط الشاعر بصاحبته أقوى من كل ما كان يدعوه إلى الانصراف عنها :

وقــد أرانى ونُعما لاهيين بها ... والدهر والعيش لم يهمُمْ بإمرار
أيام تُخــبرنى نعمٌ وأُخــبرها ... ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى
لولا حبائل من نعم علقت بهــا ... لأقصر القلب عنها أىّ إقصارِ

إنه يكرر اسمها فى هذه الأبيات المتوالية تكراراً فيه لذة الحب وفيه صدقه.

ولكن كان لابد له أن يفيق من ضلاله أو من هواه الذى طال عليه الأمد، فليست متعة الحب كل شىء فى هذه الحياة ، والإنسان لا يقف فى حياته عند طور واحد ، فلابد أن ينتقل من طور لآخر ومن حال لسواه، ويبدو أن نعما بلغها شىء من عزم شاعرنا على الرحيل، فهى عاتبة عليه ، وهذا العتب يبلغه عنها ، ولعله أراد أن يمهد لهذا الفراق بالامتناع عن لقائها :

فإن أفاق فقد طالت عِمايته ... والمرءُ يخلق طوراً بعد أطوارِ
نُبّئت نُعماً على الهجران عاتِبَةً ... سقياً ورعياً لذاك العاتِبِ الزّارى

ويبدو أن « نعما » كانت فى شك من أن يقدم صاحبها على الرحيل ،

ولكنها تراه ذات يوم وقد أعد له العدة فعلا وتهيأ لبدئه بعد قليل ، وإذا بنظراتهما تتلاقى ذلك التلاقى السريع العابر فى لحظة مكثفة من لحظات الزمان . إنها نظرة واحدة تنم عن كل شيء وتقول كل شيء من خلال صمت هو أبلغ من كل كلام، ويرتاع قلب شاعرنا الذى اتخذ هذا القرار الصعب ، قرار الرحيل ، وإذا به يرى محبوبته فى أوج جمالها وفتنتها وما هى عليه من خلق طيب كريم :

رأيت نُعماً وأصحابى على عجل … والعيس للبيْن قد شُدَّت بأكوارِ
فريع قلبى ، وكانت نظرة عرضت … حيناً ، وتوفيق أقدارٍ لأقدارِ
بيضاء كالشمس وافَتْ يوم أسعدها … لم تؤذِ أهلاً ولم تفحش على جارِ
تلَوّث بعد افتضال البرد مِئزرها … لوثاً على مثل دعص الرَّملةِ الهارى

إنه لموقف مؤثر مرسوم ببراعة فنية عالية، وهو موقف قليل الحدوث فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى كله ، فالمحبوبة دائماً هى الراحلة ، والشاعر دائماً هو المتجرع لغصص الفراق وآلامه ، ولكن مهلا ، فشاعرنا بعد أن يمضى فى رحلته يتذكر نعما ، وها هو النجم يميل إلى المغيب، لكنه لا يدرى إن كان ما يراه لمحة من سنا البرق أم أنه يرى وجه نعم أو ضوءاً من نار . . إنه يدعو صاحبه إلى أن يتثبت من الأمر ، وهو يعود فيؤكد أنه يرى وجه نعم وقد تجلى من بين الأثواب والأستار كما يتألق النجم فى سدف الظلام ، وها هو يلوم نفسه لأن هذه الحمول المهجرة إنما اتبعت ذلك الرأى السفيه المتقلب الذى جعله يهجر هذه الحبيبة التى لا تفارقه صورتها والتى تطالعه فى كل ما يقع عليه بصره بعد أن رحل عنها :

أَقُول والنَّجْم قد مالت أواخِره … إلى المغيب تثبَّتْ نظرةً حارِ
ألمحةٌ من سَنَا بَرْق رأى بصرى … أَمْ وجه نعمٍ بَدَالِى ، أم سَنَا نارِ ؟
بل وجه نعمٍ بَدَا والليلُ مُعتكر … فلاحَ من بين أثوابٍ وأستارِ
إن الحمول التى راحت مهجّرةً … يتبعن كل سَفيه الرأى مغْيارِ
نواعِمٌ مثل بيضات بِمَحْنيــةٍ … يحفزن منه ظليماً فى نقاً هارِ

وهؤلاء الشعراء أيضاً فى رحيل دائم من أجل المال الذى يهبه الكرام فيما يقول زهير بن أبى سلمى :

تأوَّبنى ذكر الأَحِبّة بعدما هجعت ودونى قلة الحزن فالرملُ
فأقسمت جهداً بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقادم والقملُ
لأرتحلنْ بالفجر ثم لأَدْأَبَنْ إلى الليل إلا أن يعرّجنى طفلُ
إلى معشر لم يُورث اللؤم جدهم أصاغِرهم ، وكل فحل له نجلُ

وهم مرتحلون أيضاً إلى حيث يأخذون المال عنوة من أصحابه الذين « يدافعون عنه بالعقوق وبالبخل » فيما يرويه عروة بن الورد الصعلوك الشهير :

لعلّ انطلاقى فى البلاد وبغيتى وَشدّى حيازيم المطيّة بالرحلِ
سيَدْفَعنى يوماً إلى ربّ هجمةٍ يدافع عنها بالعقوق وبالبخلِ

وهو يروى كيف يبعث رقيبه — إذا صادف منهلا — يبحث فى تلك الصحارى المخوفة عمن يهاجمه ويستحوذ على ماله وقد أعدّ مرجله لاستقبال ما يغتصبه :

إذا ما هبطنا منهلاً فى مخوفةٍ بعثنا ربيئاً فى المرابىء كالجذلِ
يُقَلِّب فى الأَرض الفضاء بطرفه وهن مناخاتٍ ومرجلنا يغلى

فهذه الصحراء الواسعة قليلة موارد الحياة تجعل الصراع على تلك الموارد يأخذ أشكالا متنوعة منها هذا الشكل من الصعلكة ، ويذهب الصعلوك الذى حرم عون الأقارب والأصدقاء فى الفجاج الواسعة باحثاً عما يسلبه :

وسائلة أَيْنَ الرَّحِيل وسائلٍ ومن يسأَل الصُّعلوك أَيْنَ مذاهِبه
مذاهبه تلك الفِجاج عريضةً إذا ضنّ عنه بالفِعال أَقاربه

وعروة بن الورد صاحب هذين البيتين لا يريد أن يلوم الصديق أو القريب ،

إن عليه أن يشمر عن ساعد الجد ويسير فى بلاد الله ، فإما أن ينال الغنى ، وإما أن يموت معذوراً :

إذا المرءُ لم يطلب معاشاً لنفسه ... شكا الفقرَ أوْ لامَ الصَّديق فأكثرا
وصار على الأَدنين كَلاًّ وأوشكت ... صِلات ذوى القُرْبى له أن تُنَكَّرا
وما طالب الحاجات من كل وجهةٍ ... من الناس إلاَّ من أَجَدَّ وشمَّرَا
فَسِرْ فى بلادِ الله والْتَمِس الغِنَى ... تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أو تموت فتعذرا

ولعروة هـذه الأبيات الجميلة فى الحثّ على الرحلة تجنباً للفقر الذى يذل النفس ، والتماساً للغنى الذى يجلب لصاحبه احـترام الناس والتجاوز والغفران لذنوبه مهما جلت وعظمت :

دَعِينِى للغِنَى أَسْـعَى فإنِّى ... رأَيْت الناس شَرّهم الفقيرُ[1]
وأَبْعَدَهُم وأَهْـوَنَهم عليهم ... وإنْ أَمْسَى له نَسَبٌ وخيرُ
ويُقْصِيه النـدىّ وتَزْدَرِيه ... حَليلَتـه ويَنْهَـره الصَّغِيرُ
ويُلْفِى ذُو الغِنَى ولـه جلالٌ ... يكادُ فؤادُ صاحبه يَطِيرُ
قليلٌ ذَنْبُـه والذنبُ جمٌّ ... ولكن للغِنَى رَبٌّ غَفُورُ

وها هو طرفة حين يعضه الفقر بنابه يطرح نفسه فى بلاد الله الواسعة كل مطرح ، فهو الفقير ربّ العيال :

ومَنْ يَكُ مثلى ذَا عِيالٍ ومقتراً ... من المـال يطرحُ نفسه كل مطرحِ
ليبلغ عُذْراً أو يُصيب رَغِيبَةً ... ومبلغ نفس عُذْرها مثل منجحِ
لعلَّكُمُ إن تُصلحوا بعد ما أرى ... نبات الغضاةِ النائب المتروِّحِ
ينُوؤون بالأَيْدِى وأفضل زَادهم ... بَقِيَّة لَحْمٍ من جَزُورٍ مُمَلَّحِ

فشظف العيش فى هذه البيئة الفقيرة يدفعهم دفعاً إلى التماس موارد

(١) ديوان عروة : ٤٥

ولابد للشاعر العربى إذا ذكر رحيله أن يذكر راحلته وأن يصفها وصفاً مفصلا ، فلا رحيل بدونها ، وهو يستغرق فى وصفها استغراقاً شديداً حين يشبهها بحيوان من حيوانات الصحراء يتعرض لأقسى ما يمكن أن يتعرض له حيّ من المتاعب والأهوال ، وهو يروى قصة لمعاناة هذا الحيوان الصحراوى ، وحين ينتهى منها تكون الناقة القوية المجهدة أشبه شيء بهذا الحيوان المكدود شديد البأس . فعل هذا « لبيد » فى معلقته التى شبه فيها ناقته بأتان مرة وببقرة وحشية مرة أخرى ، وها هو النابغة يفعله حين يشبه ناقته بثور وحشى لا يقر له قرار ، فهو مشرد أبعدت عنه زوجاته ، وحيد مذعور أشدّ الذعر ، ومع هذا فهو صلب قوى أتيح له غذاء وفير ، وما إن يجن الليل حتى يعانى ليلة شديدة البرودة تلفحه بحصبائها وأمطارها ، ولا ينجلى الليل حتى يواجه صياداً عنيفاً ماهراً يسعى بكلاب صيد جائعة ، ويدخل الثور فى معركة وحشية مع الكلاب ويردى عشرة منها بقرنه الحاد النافذ ، ثم يتابع عدوه السريع القلق فى المهامه الشاسعة .

ولعل أبيات النابغة التى تصور ذلك فى هذه الرائية الرائعة هى أعلى نماذج الشعر العربى وأكثرها جمالا فى هذا المجال :

ومهمه نازحٍ تعدى الذئاب به ... نائى المياه على الورّاد مقفارِ

جاوزته بعلنـــداةٍ مناقـــلةٍ ... وَعْر الطريق على الأَحزان مِضمارِ

تجتاب أَرضاً إلى أَرض بذى زَجلٍ ... ماضٍ على الهَوْل هادٍ غير محيارِ

إذا الركاب ونت عنها ركائبها ... تشذَّرت ببعيـــد السفر خطَّارِ

كأنما الرحل منها فوق ذى جددٍ ... ذبّ الرياد إلى الأَشباح نظّارِ

مطرّدٍ أُفردَتْ عنهُ حـــلائله ... من وحش وجرة أَو من وحش ذى قار

مُجَرّسٍ وحدٍ جأْبٍ أَطاع لـــه ... نباتُ غَيْثٍ من الوسميّ مبكار

سراتُه ما خـــلا لبّاتِـــه لهقٌ ... وفى القوائم مثل الوشم بالقارِ

باتَتْ له ليـــلةٌ شهباءَ تسفعه ... بحاصبٍ ، ذات إشعانٍ وأَمطارِ

وبات ضيفاً لأَرطاةٍ وأَلْجَـــأَه ... مع الظلام إليهـــا وابِلٌ سارِ

حتى إذا ما انجلت ظلماءُ ليلته   وأسفر الصُّبح عنها أيّ إسفار
أهْوَى له قانصٌ يسعى بأكلبه   عارى الأشاجع من قُناص أنمار
محالف الصيد هبّاشٌ لـه لحمٌ   ما إن عليه ثيابٌ غير أطمارِ
يسعى بغضفٍ براها فهى طاويةٌ   طول ارتحالٍ بها منه وتسيارِ
حتى إذا الثور بعد النفر أمكنه   أشلى وأرسل غُضْفًا كلها ضارِ
فَكَرّ محميةً من أن يفرّ كمـا   كرَّ المحامى حفاظـاً خشيةَ العارِ
فشكّ بالروق منهـا صدر أوّلهـا   شكَّ المشاعب أعشاراً بأعشارِ
ثم انثنى بَعْدُ للثانى فأقْصَـده   بذات ثغرٍ بعيـد القعر نعّارِ
وأثبت الثـالث الباقى بنافذةٍ   من باسلٍ عالمٍ بالطعن كرّارِ
وظلّ فى سبعةٍ منهـا لحقن به   يكرّ بالروق فيها كرّ أسوارِ
حتى إذا ما قضى منهـا لبانته   وعـاد فيها بإقبـالٍ وإدبارِ
انقضَّ كالكوكب الدرّى منصلتاً   يهوى ويخلط تقريباً بإحضارِ
فذاك شبه قلوصى إذ أضرّ بهـا   طول السُّرى والسُّرى من بعد أسفارِ

وإذا كانت « نعم » قد عاتبت النابغة عن بعد وبهذه النظرة ذات المغزى وقد فوجئت برحاله وقد شدت وبه وبأصحابه يتهيأون للسفر ، فهذه « سعاد » تأخذ عليه رحيله الكثير وقذفه بنفسه فى الأخطار ، وهو يرد عليها بأنه قد عزم على قصد الأماكن المقدسة وأنه لم يعد يحل له لهو النساء :

قالت أراك أخاً رَحْل وراحلةٍ   تغشى متالف لن يُنْظِرْنَك الهرما
حيّاكِ ربى فإنّا لا يحـل لنـا   لَهْوَ النساء وإن الدِّين قد عَزَما
مشمّرين عـلى خوصٍ مزمَّمَةٍ   نرجُو الإله ونرجُو البر والطعما

فهم فى رحيل إلى حيث يرضون الله والبر عازفين عن لذات الحياة ومتاعها فى سبيل هذه الغاية السامية .

٢ — رحيل الشعر العربى خارج مهده

كما كان الشعر العربى فى مهده بالجزيرة مرتحلا مع الشعراء من مكان لآخر ارتحالا ظهر أثره البارز فى هذا الشعر كما رأينا ، فقد ارتحل هذا الشعر من الجزيرة مع أهلها الذين خرجوا فاتحين للبلاد الممتدة شرق وغرب جزيرتهم ، وكل تاريخ الشعر العربى منذ ذلك الحين يمكن فهمه فى ضوء واحد هو الاتساع فى آفاق الأرض وما تبعه من اتساع فى آفاق الفكر ، فقد كانت الأرض التى فتحها العرب المسلمون مهد حضارات العالم القديم والوسيط ، ودخلت العربيـــة عناصر الثقافات الهندية والفارسية واليونانية ، أما فى العصر الحديث فإن العرب ومعهم شعرهم أبعدوا فى الرحيل إلى بلاد العالم الجديد فى الأمريكتين ، وكان للشعر العربى فى المهجر فى هذا الرحيل الثانى الكبير شأنه الكبير فى فترة النهضة الحديثة التى شهدها الشعر فى المشرق العـــربى .

وهكذا نرى أن تاريخ هـذا الشعر هو حقاً تاريخ الرحيل ، فالناطقون بالعربية يرحلون إلى شتى البقاع ومعهم فنهم الأول الذى قال فيه الرسول عليه السلام : لا تترك العرب الشعر حتى تترك الإبل حنينها .

والحق أن هذا الشعر احتفظ بشخصيته ، وظل فى مختلف عصوره نهراً واحداً متصل المجرى ، قد يضعف أحياناً وقد تلوّن الأحداث مياهه بألوانها المختلفة ، ولكنه ظل ذلك النهر الواحد الجارى بلا انقطاع ، فهو غنى بموسيقاه هذا الغنى الذى ينفرد به ويتفوق على كل شعر آخر ، وهو محتفظ أبداً بنظريته الأساسية ، وهى أنه شعر الذات المتفاعلة مع الواقع المحيط بها ، فلم يكن شعراً قصصياً أو مسرحياً ، أى لم يتعلق بفن القصة والمسرحية كما فعل الشعر اليونانى ، اللهم إلا إذا كان ذلك إظهاراً لمقدرة هذا الشعر على أن يكون كذلك فيما قام به شوقى وغيره إزاء ما ظن تحدياً يواجهه الشعر العربى الذى خلا من القصة والمسرحية ، وهو قد يتخلى عن بعض خصائص نغمه الأساسى

الأفقى والرأسى (الوزن والقافية) هذا النغم الوفير وفرة غير عادية ، لكن ذلك لا يعدو أن يكون فرعاً على بحره الأساسى الكبير لا يلبث أن يتلاشى أو يذوب فى فنون أخرى ، كما حدث لفن الموشحات الذى أصبح من الفنون الشعبية من زجل وموالبا وغيرها .

ولو ذهبنا نستقصى أثر رحيل الشعر العربى فى العصر الوسيط والعصر الحديث إلى آفاق الأرض الجديدة التى مضى إليها من مهده وموطن الأول ، لروينا تاريخ هـذا الشعر كله جملة وتفصيلا ، ولكن حسبنا أن نقف هنا وقفة قصير ما أمكن مع ما تلقاه هذا الشعر من تأثيرات بارزة مع هذا الرحيل إلى العالمين القديم والجديد فى العصرين الوسيط والحديث قبل أن نصحب كبار شعرائه فى الرحيل الخاص بكل منهم .

الحياة بكل سبيل ، وإلى ذلك الرحيل المستمر الذى كانوا يحتملون مشقته من أجل استمرار الحياة :

دَعِينى أطوّفْ فى البلاد لعلنى ... أُفيد غنى فيه لذى الحق محملُ[1]

أَلَيْسَ عظيماً أن تُلم ملمّـــةٌ ... وليس علينا فى الحقوق معوّلُ

فإنْ نحنُ لم نملك دفاعاً بحادثٍ ... تُلِمُّ به الأيام فالموتُ أجملُ

وهذه الرحلة المستمرة الواسعة التى يتردد صداها فى أنحاء الشعر الجاهلى تستمر بعد ظهور الإسلام ، ولكن تظهر فيها بعض آثار العهد الجديد بطبيعة الحال ، فها هو الحطيئة الذى يتساءل :

أَمِنْ رَسْم دارٍ مربـعٌ ومنيفُ ... لعينيك من ماءِ الشؤونِ وَكِيفُ

يتذكر ما يصفه بأيام الجهل حيث تنهل دموعه وهو بين أصحابه الذين يلومونه على هذا البكاء من الشوق مما لا يليق بمسلم يرجو وجه الله ، وهو كعـــادة الشعراء الجاهليين لا ينقذه من هـــذه المشاعر المؤلمة أمام ديار الأحبة المهجورة إلا تلك الناقة القوية السريعة يبدأ بها رحلته إلى رجل كريم يقطع إليه هذه المهامه الواسعة المخوفة من أجل أن ينال عطاءه ، وهو ذلك العمل المهين الذى دأب عليه بعض الشعراء منذ العصر الجاهلى عبر عصور الشعر العربى كلها :

تذكّرْت فيها الجهل حتى تبادرت ... دموعى وأصحابى علىّ وقوفُ

يقولون هل يبكى من الشوق مسلمٌ ... تخلّى إلى وجه الإلــه حَنِيفُ

فلأْياً أزاحت عِلّتى ذات منسمٍ ... نكيبٍ تعالى فى الزمام حنوفُ

مقذَّفةٌ باللحم وجناء عـــدوها ... على الأَيْنِ مـــرقالٌ معاً ووجِيفُ

إليكَ سَعيد الخَيْر جُبْتَ مهامِهاً ... يقـــابلنى آلٌ بهـــا وتنـــوفُ

---

(١) ديوان طرفة : ٦٤

لا تَبْكِ رسماً بجانب السَّنَــد ولا تجدْ بالدُّمُــوع للجُرُدِ ؟

ولا تُعَــرِّج عـــلى مُعَطَّـــلة ولا أثافٍ خَــلَتْ ولا وَتَــدِ

ومِلْ إلى مجلس عــلى شرفٍ بالكرخ بين الحديق مُعتمدِ

ممهَّـــدٍ صفّفت نمـــارقُه فى ظلِّ كرمٍ معرَّشٍ خَضِـــدِ

قــد لَحِقَتْك الغُصون أرْدِيةً فيَوْمُكَ الغَضّ بالنَّعيم نَدِى

ثم اصطبح من أميرةٍ حُجِبت من كل عَيْنٍ بالصَّوْن والرَّصدِ

لم يَرَهــا خاطِبٌ فيمنعهـــا ولا دَعَاهُ لهـــا أخُــو فَنَــدِ

وأبو نواس يسخر كثيراً من افتتاحيات القصائد بالبكاء على الأطلال وعلى الراحلين من أهلها :

قُلْ لمن يبكى على رسْم درسْ واقفاً ما ضَرّ لو كان جلس

اترك الرَّبْع وسَــلْمى جانباً واصطبح كرخيَّةً مثل القبس

وهو يلح على هذا المعنى إلحاحاً شديداً فى شعره مزدرياً حياة الصحراء والرحيل الدائم ، والديار المهجورة ، ومشيداً بحياة الاستقرار والنعيم واللهو :

أَحَبّ إلىّ من وخد المطايا بموماةٍ يَتِيهُ بهــا الظَّلِيمُ

ومن نَعْت الدِّيار ووصف ربع تلُوح به على الْقِدَم الرُّسُومُ

رِياضٌ بالشقائق مُونقــاتٌ تكنّف نَبْتَهــا نَوْرٌ عَمِيمُ

كأَنَّ بها الأَقاحِى حين تضحى عليها الشمسُ طالعةً ، نُجُومُ

ومجلس فِتْيَةٍ طابُوا ، وطابَتْ مجالِسهم ، وطابَ بها النَّعيمُ

تدورُ عليهمُ فيهــا عقــارٌ معتَّقةٌ بهــا يَصْبُــو الحليمُ

كُؤوسٌ كالكواكب دائراتٌ مطالعها على الفلك النُّجومُ

لكن دعوة أبى نواس لم تتجاوزه ، وظل شعراء العربية يبدأون قصائدهم بذكر الديار التى رحل عنها ساكنوها ، وإن خلت هذه المقدمات من حرارة

الصدق وصارت إلى افتعال ممل سقيم عند البحترى والمتنبى وغيرهما .

كان أبو نواس — كما رأينا — مثلا لامتزاج الثقافات الوافدة من شرقية وغربية امتزاجاً قوياً دقيقاً لطيفاً ، فقد استطاع بشخصيته الفذة أن يستوعب هذه الثقافات ، وأن يخرج منها مزاجاً جديداً له نكهته الخاصة المميزة من فلسفة الشرق ومنطق الغرب ، وأهم من ذلك أنه استطاع أن يجعل شعره يستوعب علمه ، ولهذا فلم يفسد شعره بالعلم كما هو حال كثير من أهل العلم ممن نظموا الشعر ، لأنه امتلك ناصية الشعر والعلم معاً

كان الشعر ماضياً فى بلاد المشرق العربى فى تلك العصور يستوعب التأثيرات الفكرية والفنية الجديدة ، وكان قد أخذ سبيله إلى التأنق اللفظى بعد أن أخذ حظاً لا بأس به من التأنق الفكرى عند بشار وأبى نواس ، وظهر هذا التأنق اللفظى عند أبى تمام أشبه بالهيكل العظمى عارياً ساذجاً فى مثل قوله :

إذا أَلجمت يوماً لُجَيْمٌ وحَوْلها　　بَنُو الحِصْن نجل المحصنات النجائبِ
يمدُّون من أيدٍ عواصٍ عواصِمٍ　　تَصُولُ بأَسيافٍ قواضٍ قواضبِ

أَو قوله :

غربت خلائقه فأَغرب شاعرٌ　　فيـــه فأَحسن مُغَربٌ فى مُغَربِ

أَو قوله :

ياعقب طوقِ أَىّ عقبِ عشيرةٍ　　أَنتم وربّت معقب لم يعقبِ

ولقد صدق فيه قول الباقلانى : إن أبا تمام أسرف فى المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة حتى استثقل نظمه واستوخم وصفه .

إن هذه المشاكلات اللفظية عند أبى تمام هى أقرب شىء إلى طفولة العمل الفنى منها إلى نضجه ورشده ، على أن هذه المشاكلات يكتسى هيكلها العارى الساذج عند أبى تمام لحماً وثياباً أنيقة من الفكر العميق الأنيق ، وخاصة عند المتنبى وأبى العلاء ، بل لقد تلاقى هذا الثراء والترف الفكرى مع الثراء والترف فى الحياة فى هذه البلاد التى ارتحل إليها الشعر العربى فى الشام والعراق ،

(أ) الرحيل الكبير الأول (فى العصور الوسطى)

(١) الى المشرق العربى

إن ما تلقاه الشعر العربى من تأثير بعد خروجه من مهده الأول إلى المشرق ينقسم إلى أثر شرقى ممثل فى الحضارة الفارسية بوجه خاص ، وأثر غربى ممثل فى الحضارة اليونانية ، وكانت الترجمة فى العصر العباسى قد فتحت باب اللغة العربية لتلقى تأثيرات الحضارة الوسطى على اختلافها من هندية وفارسية وسريانية ويونانية .

ولعل أهم شاعر التقى فيه التأثير الفارسى واليونانى أو الشرقى والغربى فى ذلك الوقت هو أبو نواس ، فقد كان فارسى الأصل ، ظهرت فى شعره رقة الحضارة الفارسية ونعيمها وفلسفتها التى تبلورت عنده وعند عمر الخيام من بعده فى الدعوة إلى اقتناص لذات الحاضر المادية والإغراق فيها إغراقاً شديداً فى قوله :

فما الطيش إلاَّ أن ترانِيَ صاحيا وما العيش إلاَّ أن ألذَّ فأَسكرا

وقوله :

الخمر تُفَّاحٌ جرى ذائباً كذلك التفَّاح خمر جَمَدْ

فاشرب على جامدٍ ذا ذوبَ ذا ولا تدع لَذَّةَ يومٍ لِغَدْ

وفى أنحاء ديوانه تتردد صدى دعوته المتكررة إلى اقتناص لذات الحياة الدنيا من خمر وطرب ومجون ، وإلى جانب ذلك نرى علمه الغزير مصبوباً فى قوالب من التفكير المنطقى الدقيق ، واصطلاحات المتكلمين المستمدة من الفكر اليونانى ، وكل ذلك فى عذوبة ورقة وتمكن من ناصية الفن ، وليس أدل على ذلك من إدخاله فكرة التولد الفلسفية فى فن الغزل بهذا الأسلوب اللطيف :

وذات خدٍّ مــورّد فتّـــانة المتجرّد
تـأمّل الناس فيهــا محاسِناً ليس تنْفَد
الْحُسْنِ فى كل جزءٍ منهــا مُعادٌ مردّد
فبعضُه فى انتهــاءٍ وبعضُـــه يتولَّد
وكُلَّما عُدْت فيــه يكون بالعَوْدِ أحْمَد

فها هو الشعر العربى الذى خرج من مهده فى الجزيرة العربية ينتقل إلى هذا اللون الطريف العميق الدقيق من الفكر الذى ما كان ليتاح له مطلقاً فى بيئته الأصلية ، إن آلة الشعر العربى الموسيقية ذات الإمكانيات الكبيرة تعزف عليها الآن هذه الأنغام الفكرية الدقيقة العميقة ، الأنيقة الرشيقة .. فأنت لا تملّ أبداً هذا الحسن لسبب بسيط هو أنه فى حركة مستمرة .. إن ما تراه الآن منه ليس هوما تراه بعد ذلك ، لأن منه ماينتهى ومنه ما يتولد ، فهوحسن غزير النبع دائم الحركة ، إنه كالحياة تتجدد فى حركة التوالد المستمرة مع أنها هى نفسها ليس فيها شىء جديد ، ولهذا يظل تكرارها وعودتها شيئاً محبباً للنفس فى هذه الحركة المستمرة والانتقال من طور إلى طورجديد . وأنت مع شعر أبى نواس تسير فى بستان متنوع الزهور والثمار ، تتجلى فيه مفاتن الطبيعة.. طبيعة الفكر وزهوره وثماره .. لقــد فتح بشار باب التجديد الجرىء فى معانى الشعر العربى ، وبلغ هذا التجديد مداه عند أبى نواس ، فالعقل الفارسى كان يتحدث من خلال الشاعرين بلسان عربى بليغ ، ولعل أهم دعوة فنية ترددت فى شعر أبى نواس دعوته إلى تغيير النظام الفكرى للقصيدة العربية التى تفتتح ببكاء الراحلين فى هذه البيئة التى كانت حياتها تدور حول محور الرحيل ، لقد سعى أبو نواس إلى هدم المقدمة الطللية كما هو معروف ، وأبو نواس لم يخف أن دافعه لذلك كان ازدراء الحياة الفقيرة الجافة الغليظة فى الصحراء العربية التى كانت هــذه الافتتاحية التقليدية نابعة منها أساساً ، فقد انتقل الشعر إلى بلاد جديدة وحال جديدة ، وترك الخيام والنؤى والثمام إلى البيوت المستقرة الفخمة ، وإلى حياة الدعة والنعيم واللهو والطرب . ولابد أن تدور معانيه حول محور هذه الحياة الجديدة ، وأهم عناصرها فى نظرة الخمر وما يحيط بها من نعيم هذه الحياة :

وتجلى ذلك فى هندسة البيت الشعرى . وكثيراً ما يلتقى بهذه التقابلات اللفظية والفكرية بين شطرى البيت عند البحترى والمتنبى ، ونحن نرى هذا الترف الفكرى فى هذه الهندسة الموسيقية عند البحترى :

نَسِيمُ الرَّوْض فى رِيحِ شمالٍ   وصوب المزْنِ فى رَاحٍ شمولِ

* * *

تُشَــاكِله اهتزازاً وانعــطافاً   وتحكيــــه قواماً واعتــدالا

* * *

وعينٍ ليس تــأْلونى انْسِــكابا   وقلبٌ ليس يــأْلونى خَبالا

* * *

أَقصرت فى لَوْم المحبّ فأَقلل   وأَمرت بالصَّبْرِ الجميل فأَجْمِل

* * *

فليسَ الذى حَللتِــه بمحلَّلٍ   وليس الذى حَرَّمْتــه بحرامِ

ويستمر المتنبى على هذه الشاكلة من تلك المشاكلة اللفظية والتنسيق الهندسى للبيت الشعرى الذى كان نتيجة طبيعية لترف الفكر والحياة :

جزاءُ كل قريبٍ منكُمْ مَلَلٌ   وحظُّ كل مُحِبٍّ منكُمُ ضَغَنُ

* * *

إنِّى أُصاحِبُ حِلْمى وهــو بى كرمٌ
ولا أُصاحب حِلْمى وهى بى جُبُنُ

* * *

الرَّاميات لنــا وهُنَّ نَوافرٌ   والخاتِلات لنــا وهُنَّ غَوافِلُ

فهى — كما نرى — أبيات تعكس ما فى الحياة المتحضرة من تنسيق وتنميق وزخرف ، فيها الذوق الرفيع ، وليس فيها ما عند أبى تمام من رصف بدائى

قائم على تلك المشاكلات اللفظية المباشرة الساذجة ، كإتباع لفظة « ذاهل » بلفظة « ذهلية الحى » فى قوله : متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل ، أو ما مر بنا من إتباع ألجمت بلجيم ، وعواص بعواصم ، وقواض بقواضب ، وعقب بمعقب ويعقب ، وغيرها وغيرها مما أسرف فيه إسرافاً شديداً .

والواقع أنه أصاب الشعر العربى فى هذه البيئات الجديدة التى رحل إليها فى العصور الوسطى تغير فى أهم مقوم من مقوماته وهو الموسيقى ، وإن كان تغيراً جانبياً لم يطل ولم يبرز كثيراً ، هو ذلك الانحراف عن القافية الموحدة إلى القافية المتعددة والمزدوجة بوجه خاص ، وذلك ما اقتضاه الشعر التعليمى . ويقابل ذلك ما حدث للشعر العربى فى امتداده غرب الجزيرة وصولا إلى الأندلس ممثلا فى فن الموشحات الذى لم يلبث أن تحول إلى فن شعبى وانفصل أو كاد عن النهر الأساسى للشعر العربى .

(٢) الى الأندلس

ما إن تطأ أقدام العرب أرض الأندلس حتى تصدح بلابل الشعر على أفنانها ، وحتى تنطلق من أوتار الشعر العربى أعذب الألحان بين أحضان هذه الطبيعة البديعة الساحرة .

ونحن فى تلمسنا السريع لأثر ارتحال الشعر العربى أشرنا منذ قليل إلى فن الموشحات الذى يعد انحرافاً عن الطابع الموسيقى للشعر العربى القائم على وحدة الوزن والقافية فى العمل الشعرى الواحد، وهو الانحراف الذى يقابل الانحراف الموسيقى القليل والعابر بالنسبة له فى الشرق . وهذا أمر طبيعى ، فالشعر العربى فى الغرب حل فى بيئة أوربيـة ، وفى أوربا شعرلا تكاد تصل قوافيه إلى عدد أصابع اليد الواحدة أو ربما تجـاوزها بقليل ، وسنرى أن الشعر العربى الذى رحل إلى الأمريكتين فى العصر الحديث يتخذ نفس طابع الشعر العربى الذى رحل إلى أوربا فى العصور الوسطى من حيث الميل إلى تنوع القافية والوزن أيضاً .

وعلى كل حال فإن الشعر التعليمى فى الشرق ، وشعر الموشحات فى الغرب سرعان ما انفصلا عن تيار الشعر العربى الأساسى ، وباستخدام الموشحات الألفاظ العامية وتسكينها أواخر الكلمات أخذ الموشح يصبح فناً شعبياً تطلق عليه أسماء مختلفة فى شتى الأقطار العربية كالزجل والمواليا . أما الأثر البارز الباقى الذى تلقاه الشعر العربى بمقوماته الموسيقية والفنية الكاملة فى هذه البيئة الأندلسية الجميلة ، فهو ما انطبع على صفحته من آثار الطبيعة الفاتنة ، وحتى فى المديح والرثاء تجد هذه البصمات واضحة وكثيرة كثرة تلفت النظر ، فقصائد هـذه الموضوعات التقليدية هى حدائق غناء بسمائها وشمسها ونجومها وزهورها وأريجها وأنسامها وليلها ونهارها ، وتغريد أطيارها وجداول مائها ، وها هو ابن خفاجة يمدح قاضى القضاة فيستهل قصيدته بقوله :

يا نشر عرف الرَّوْضة الغَنَّاءِ ... ونسيم ظل السَّرْحة العَيْنَاء

وهو يرثى الوزير أبا محمد عبد الله بن ربيعة فيستهل رثاءه بقوله :

فى كل نادٍ مِنْكَ روض ثناء ... وبكل خدٍّ منك جدول ماء

وأما مديحه للأمير أبي يحيى بن إبراهيم ، فهو هزج صدحت فيه القمارى على أغصان السطور ، وأما الممدوح نفسه فصباح نير يضحك فيه النوّار لأنواره المشرقة ، بينما تكسو دولة أبي يحيى الليالى رونق الأسحار .

فأَصخ إلى هزج المديح فإنما ... صدحت بأَغصان السطور قمارِى

فاطلع لروضتها صباحاً نيِّراً ... يستضحك النوار للأَنوارِ

واسلم أبا يحيى لها من دولةٍ ... كست الليالى رونق الأَسحارِ

فها هو الشعر العربى قد اكتسب برحيله إلى الأندلس الجميلة تلك الرقة ، وهذا الجمال ، وتلك الحدائق البديعة من المعانى التى ترى زهورها وتشم شذاها فى دواوين شعراء الأندلس ، وهى معان ما كان ليكتسبها لو بقى فى مهده الأول حيث قسوة الصحراء القاحلة الموحشة ووديانها المخوفة .. لقد أخرجت هذه الصحراء هذا العود الرائع من الشعر الذى تعزف عليه الآن هذه النغمات العذاب فى هذه البلاد النائية .

ونستطيع أن نتنزه فى روضة أى شاعر أندلسى آخر غير ابن خفاجة أو فى ديوانه لترى أثر الطبيعة واضحاً وضوح الشمس فى رائعة النهار ، رقيقاً رقة الأزهار ، منساباً فى نواحيه انسياب الجداول والأنهار . وها هو ابن سهل يمدح الرئيس أبا عثمان بن حكم صاحب منورقة ، فيستهل قصيدته فيه بقوله :

ذُدْ عن موارِد أَدْمُعى طَيْر الكَرَى ... وأَعِدْ بنارِ الوَجْـدِ ليلى نَيِّرَا

ويمتدح ابن هانى القائد جوهراً فيقول :

انظلم إن شمنا البوارق لمّحا ... وصحن لسارِى الليل من جنب توضحا

بعينيك إنْ باتت تحرّق كورها ... مجحلةً غراً من المزْن دلَّحا

ولما احتضَنّ الليل أرهفْنَ خصره ... فبات بأَثناء الصَّباح مُوَشَّحا

(ب) الرحيل الكبير الثانى الى الأمريكتين
(فى العصور الحديثة)

كان الرحيل الكبير الأول للشعر العربى مع أهله من الجزيرة العربية إلى شرقها فى آسيا وغربها فى إفريقيا وفى الأندلس فى عصر الفتوح الإسلامية وما تلاها ، وهذا هو الرحيل الكبير الثانى للشعر العربى مع أهله من عرب الشام خاصة إلى الأمريكتين فى العصر الحديث .

لقد اختلفت دوافع الرحيل الأول وظروفه عن دوافع الرحيل الثانى وظروفه .. ففى الأول خرج العرب فاتحين ناشرين ديناً وثقافة ومتفاعلين مع ثقافات البلاد التى فتحوها وحكموها ، وخرج العرب فى الثانى تحت ضغط من العوامل الاقتصادية والسياسية غير الملائمة فى بلاد الشام إلى حيث يأملون حياة أفضل من الوجهتين فى العالم الجديد .

ولقد تأثرت موسيقى الشعر العربى فى الأندلس بالوسط الجديد ، فتعددت القوافى وسكنت أواخر بعض الكلمات . وفى العالم الجديد أيضاً تعددت القوافى حتى أننا فى بعض الأحيان يخيل إلينا أن هذا الشعر تجديد لفن التوشيح ، اقرأ قول أمين نخلة (١٨٩٨ – ١٩٣٧) الذى استقر فى الأكوادور :

أَنت مُلقى على بساط الأَثير   طرزته النجوم صفًّا فَصَفًّا
فــوق فلكٍ من الْهَوَا والنــور   فى عُبَابٍ من اللُّجَيْن المصفى
أَىّ شَــطّ تَبْغِى بهــذا المسير   فى أَقاصِى المَدَى يبين ويخفى
قد بَدَا الليلُ والنهار   فى بحار الفَضَا تَهِيم
سفرةٌ ما لهــا قَرَار   أَمْ لهــا مُنْتَهى حكيم

فهذا التنويع فى القــافية والوزن يذكرنا على الفور بالموشحات ، بل

ينقلنا إلى جوها ، وها هى الظروف تتشابه ومعها تتشابه النتائج ، إلا أن شعر المهجر لم يتجه وجهة الموشحات التى جعلتها فى النهاية جزءاً من الشعر الشعبى بإدخال الكلمات غير العربية فى صلبها وتسكين أواخر الكلمات العربية ، فالحق أن شعراء المهجر عملوا جهدهم على الاحتفاظ بنقاء ديباجة الشعر العربى الأصيل وإن أخفق فى ذلك بعضهم . وقد تلونت معانى هذا الشعر وأفكاره بألوان البيئة الجديدة وطبيعتها الفاتنة وحياتها الأكثر تحرراً وانطلاقاً ، وحمل ما كان يعتمل فى نفوس الشعراء من حنين لبلادهم ، تحول عند بعضهم إلى أنين موجع ، وهناك شىء من الحرية فى النظر إلى العقيدة الدينية قد خالط هذا الشعر ، يضاف إلى ذلك ما هو معروف من اتجاه إنسانى واسع الأفق عند بعضهم رافقته حيرة فى تأمل هذا الكون الفسيح ومصير الإنسان فيه .

فى الرحيل الأول للشعر العربى كان العرب سادة البلاد التى فتحوها ، فكانت نفوسهم أكثر استقراراً وثقة وأماناً ، وكان تغنيهم بالطبيعة الفاتنة فى تلك الربوع ينم عن هذا الاستقرار والأمان وعن هذا الشعور المشرق بالبهجة والحبور إذا ما قارناه بشعر المهجريين فى العالم الجديد ، فهو شعر فيه الكثير من الحيرة إزاء العالم بأسره ، والأسى لفراق الأوطان التى يعيش فيها أهل للشاعر يعلم أنهم يقاسون ما نجا هو من عذابه من ضوائق اقتصادية ومتاعب سياسية ، وهاهم حين يعودون إلى ربوع بلادهم بعد طول الغياب يطلقونه مثل هذه الزفرة التى أطلقها « ميشال مغربى » حين عاد إلى بلدته (حمص) بعد غياب ثلث قرن :

حسرا أمر على ربوع طُفولتى ومواكِبُ الذكرى تمرّ خيالى
مُترفّق الخطوات لا أطَأُ الثرَى إلاَّ وقلبى سابقٌ لِنعالى
ولقد أكبّ على الحجار مقبّلاً وأعفّر الأهداب بالصلصالِ
لا يعشق الأحرار غير بلادهم ولو أنها طللٌ من الأطلالِ

وها هو (أمين مشرق) يناجى والدته بهذه القصيدة التى تكشف عن تلك النفس الحزينة التى رحلت عن أهلها وبلادها وهى معهم ومعها بالقلب والروح :

يا نَسْمَةَ الصُّبح لامِسِيها   وبرّدِي قلبِيَ الحــزِين
يا نَسْمَةَ الصُّبْح قبِّليهــا   فى الْخَدّ عَنِّى وفى الْجَبِين

* * *

أُمَّــاه باللهِ ما دَهَـــاكِ   وما دَهَى إخْوَتِى الصِّغَار
هلْ أَوْقعتهم يَدُ الْهَلاك   ما بينَ نارٍ وبينَ عَــار

* * *

وهلْ طَغَى فيكُم الأَعادِى   وطارَدُوكُم إلى البَــوَادِى
وهــلْ لكُم خَيَّمَ السُّكُون   وأُغمضَتْ فى الدُّجَى عُيُون
ومرّ فى بالِــكُم أَمِين ؟   أُمَّاه – رُدّى – أنَا أَمِين !

نعم . . ففى هذا الرحيل الثانى الكبير رحل العربى ومعه شعره إلى العالم الجديد ناجياً بنفسه من فقر واضطهاد ، لكنه لم يستطع بطبيعة الحال أن ينجو من عذاب النفس وقلقها على الأهل فى تلك الظروف الصعبة التى تركهم الشاعر تحت رحمتها .

وفى هذه القصيدة التى قالها (جورج صيدح) يصف حفل «كوكتيل على الشاطىء » – تبدو نفس الشاعر حتى فى هـذه الأوقات المرحة السعيدة تلك النفس التى يعتمل الحزن فى أعماقها :

هاتِها تعكس أَشباح الغُروب   فى خليطٍ من عصاراتٍ تَرُوب
كُلَّما غَصّ بها حَلْق الطروبِ   طلَبَ التكرار من غَصَّاتِهــا

* * *

هاتِها وارْفَعْ بها عِبْءَ السِّنِين   عن كُهول مَرِحُوا كاليَافِعِين
إنما السَّاعة عنــد العارِفين   ساعة الكُوكتيل فى مِيقاتِها

وأنت تنتقل من هذا الشعر بين كثير من أبيات الحنين والأنين التى تستدر الدموع .

والواقع أن شعراء المهجر الذين أهفّهم الحنين إلى وطنهم قد اتخذوا لهم وطناً أكبر هو الأرض كلها والكون والإنسانية ، وإذا كان الحزن قد لازمهم فى شعورهم تجاه الوطن الأصغر فإن الحيرة قد لازمتهم فى نظرتهم إلى الكون ، وهى حيرة لا يزال يصبغها الحزن الدفين فى أعماق نفوسهم ، تأمل قول إيليا أبى ماضى :

كَمْ تَشْتكِى وتقول إنك مُعْدَم ... والأَرض مِلْكك والسَّما والأَنجمُ

ولك الحقول وزَهْرها وأَرِيجها ... ونَسِيمها والبُلْبُـــل المترنِّمُ

هَشَّت لك الدُّنيا فمالَك واجماً ... وتبسَّمت فعَلَامَ لا تتبسَّمُ ؟

٣ ـ رحيل الشعراء
فى العصور الوسطى الى مراكز
السلطان الاقتصادى والسياسى
ومركز الدعوة الاسلامية

مقـــــدمة

ألح أبو نواس فى القرن الثالث – فيما هو معلوم – على نبذ المقدمة الطللية بما تضمه من ذكر للحبيبة الراحلة والديار المهجورة ، ودعا إلى التغنى بدلا من ذلك بالخمر ومجالسها وحياة اللهو والنعيم ، ولكنه لم يفلح فى مقاومة هذا الاتجاه الذى ظل تقليداً ثابتاً للشعراء ، وإن خلا بطبيعة الحال من الصدق ومن حرارته التى كانت له حين كان شعراء العصر الجاهلى يصفون واقعهم وحياتهم الحقيقية الدائرة حول محور الرحيل وما يتولد عنه من ألم الفراق، وكان الشعراء الجاهليون يصفون موقف الفراق ويتركونك تتخيّل مشاعر الألم التى تعتمل فى نفوسهم ، فلم يكونوا يشيرون إلى هذه المشاعر ، ولو وردت عندهم فإنها ترد بطريق غير مباشر من خلال أصحاب الشاعر الذين يدعونه إلى الصبر والجلد :

وقُوفاً بها صَحْبى علىّ مَطيّهم　　　يقولون لا تهلك أسًى وتجلُّدِ

فهذا القول له على الأقل رصيد من الواقع فى هذه البيئة ، ولم يكن هذا الرصيد موجوداً عند شعراء تغيرت بهم الحال ، فلم تعد هناك مطايا ولا أرحل ولا رحيل مستمر هو محور الحيـــاة وقوامها ، وأنت ترى هؤلاء الشعراء يعوّضون الصدق بالإسراف فى وصف نار الهوى التى تحرق الكبد والقلب ، والدموع التى تغرق ساكبها فى مثل قول البحترى :

قالوا مَطايا التى تهوى سترتحـــلُ　　　فى يومها أو غَـــدٍ والْبَيْنُ مُقْتبلُ

فأَضْرَمُوا إذْ أشاعُوا الْبَيْنَ فى كَبِدى　　　والقلبِ نار الهَوَى والشَّوق تشتعلُ

والْبَيْنُ يفعلُ بالعُشَّاق مُحْتكماً　　　ما ليس يفعله الهِنْدِىّ والأَسَلُ[1]

---

(١) ديوان البحترى ٣/١٨٨٧

أو قول أبي تمام :

أَهْدِ الدُّمُوع إلى دارٍ وماصحها ... فللمنازلِ سـهمٌ فى سَوافِجِهـا
أشلى الزمان عليهـا كلَّ حادثةٍ ... وفرقةٍ تظلم الدنيـا لنازحِهـا
حلفت حقًّا لقد قَلَّتْ ملاحتهـا ... بمن تخرّم عنها من مَلائحها
إن تبرحا وتباريحى على كَبِدٍ ... ما تستقر فَدَمْعِى غير بارِحِها

ما رأيك فى هذا الرحيل وناره ودموعه وآلامه وتباريحه ، أليس بارداً برودة الثلج إذا قورن بحرارة وصف الرحيل فى الشعر الجاهلى ؟ ألست تحس أنه عملة زائفة لا رصيد لها من ذهب الواقع ؟ لكن وجود هذه المقدمة من ناحية أخرى دليل على قوة المقدمة الطللية فى القصيدة الجاهلية ، فقد بقيت على ألسنة الشعراء وإن ذهب دافعها الحقيقى وبقيت جزءاً من القصيدة العربية على مر القرون ، بل بقيت تحتل نفس مكانها فى أول القصيدة . والمتنبى لا يشذ عن هذه القاعدة فى القسم الأول من شعره بوجه خاص فى مثل قوله :

أركائب الأَحباب إن الأَدْمُعـا ... تطسن الخدود كما تطسن اليرمعا
فاعْرِفن من حملت عليكن النَّوى ... وامشين هوناً فى الأَزِمَّة خُضَّعا
قد كان يمنعنى الحياءُ من البُكا ... فاليَوْم يمنعه البكا أن يمنعا[1]

أو قوله :

بـأَبى الشموس الجانحات غواربا ... اللابِسَات من الحرير جلاببا
يا حبّـذا المتحملُون وحبّـذا ... وادٍ لثمت به الغزالة كاعِبا

على أنه يبدى فيما بعد ضيقه بهذه المقدمات التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تركيب القصيدة العربية فى قوله :

إذا كان مَدْحٌ فالنَّسِيبُ المقـدمُ ... أَكُلّ فَصِيحٍ قالَ شِعراً مُتَيَّم ؟

(١) ديوان المتنبى : ١٠٧

ومع مرور الزمن تقل قوة المقدمة الطللية ، وتفقد بالتدريج مكانها ومكانتها فى القصيدة العربية وإن بقيت آثارها الضئيلة حتى العصر الحديث حيث يبدأ شوقى إحدى قصائده بعد المنفى بقوله :

أُنادى الرَّسْم لو مَلَكَ الجوابا وأُجزيه بدمْعى لو أثَابا

فهذا الأثر الضئيل من بقايا المقدمة الطللية التقليدية يسقط هذا السقوط العفوى فى الشعر الحديث إيذاناً بانمحائه انمحاء نهائياً من الشعر العربى .

وليس معنى ذلك أن الشعراء العرب قد كفوا عن الرحيل وعن ذكره فى البلاد التى رحل إليها الشعر العربى مع أهله من مهده الأول فى الجزيرة إلى بلاد المشرق العربى ، فقد استمروا فى الرحيل وإن اختلفت دواعيه فى عصور ازدهار الدولة العربية الإسلامية فى القرون الأربعة أو الخمسة الأولى من حياتها عن دواعيه فى قرون ضعف هذه الدولة وانقسامها ومعاناتها من الغزو الخارجى والأحوال المعيشية السيئة ، ففى فترة ازدهار الدولة وغناها ومجدها ، سواء فى أيام خضوعها لسلطة بغداد أو فى أيام الدويلات المستقلة القوية ، ظل الشعراء يرحلون إلى مراكز السلطان السياسى والاقتصادى ، مصرّحين بغرضهم فى نيل الثروة من ممدوحيهم الأثرياء ؛ فعل هذا كبار شعراء العربية من أمثال أبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى ، أما فى تلك الأيام التى شهدت الضعف والتدهور العام فى البلاد العربية الإسلامية حيث ساءت الأحوال الداخلية بانعدام الأمن وشيوع الفقر والأحوال الخارجية بإطباق الغزوين الصليبى والتترى من الغرب والشرق ، فقد قصد الشعراء مؤسس الدولة (محمد صلى الله عليه وسلم) الذى اعتقدوا أنه حى فى قبره ، وأنه يعلم كل صغيرة وكبيرة من حياة أمته ، وأنه قادر بجاهه عند الله أن يغير الحال إلى ما هو أفضل ، ووصف شعراء المديح النبوى المتأخر رحيلهم المستمر إلى أرض الرسول وصفاً مؤثراً رائعاً مع ما كان الراحل إلى الأماكن المقدسة يواجهه من أنواع المخاطر والمشاق فى تلك الأيام التى أفلت فيها زمام الأمن وساءت الأحوال الاقتصادية والصحية للناس فيما صوره شعراء المديح النبوى فى تلك العصور .

لم يتوقف إذن رحيل الشعراء فى المشرق العربى إلى مراكز السلطان السياسى ثم إلى مركز السلطان الدينى فى العصور الوسطى .

رحيل أبى نواس :

وها هو أبو نواس يرحل من العراق إلى مصر راجياً أن ينال من واليها الخصيب من الغنى واليسار ما يكفيه إلى آخر الدهر :

إنِّى لأَرْجُـــو يا خصيب على ... يَدك اليَسَارة آخـــر الدَّهْرِ

وها هو يبشر ابنته بميرة مصر ، ويدعوها إلى التمنى ، بل والإسراف فى هذا التمنى :

يا ابْنَتى أَبْشِرى بميرة مِصر ... وتمنِّى وأَسْرِفى فى الأَمـــانى

وها هو يصر على القيام برحلته إلى مصر برغم تلك التى بذلت جهدها لثنى عزمته عن هذا الرحيل الذى يعز عليها ، فهو يستطيع أن يحصل على الثروة من طريق آخر غير طريق مصر :

تقولُ التى من بيتها خفّ مركبى ... عزيزٌ علينا أن نَرَاك تَسِيرُ
أَما دُون مِصرٍ للغنى متطلـــبٌ ... بلى إن أَسباب الغِنَى لكثيرُ[1]

ولكنه يغريها بأنه سيكثّر حاسديها بهذه الرحلة إلى بلد فيها الخصيب أمير :

ذَرِينى أُكثّر حاسِديك برحلةٍ ... إلى بلدٍ فيها الخصيب أميرُ
إذا لم تَزُرْ أَرض الخصيب رِكابنا ... فأَىّ فَتًى بعد الخصيب تزورُ ؟

رحيل أبى تمام :

والواقع أن رحلة أبى نواس إلى مصر إنما كانت — كما ذكرنا — أول الغيث فى رحيل الشعراء إلى مراكز السلطان السياسى وما يقترن به من سلطان

(١) ديوان أبى نواس : ٣٢٨

اقتصادى ، وأنت تفتح ديوان أبى تمام بأجزائه الثلاثة فلا ترى غير المديح لأولئك الذين كان أبو تمام يرحل إليهم مادحاً ليعطوه ، وها هو أبو تمام يقصد عبد الله بن طاهر فى أبر شهر ، فيأمر له بشىء يستقله أبو تمام فيما يرويه الصولى من أخبار أبى تمام[1] ، فيفرق عطية ابن طاهر ، ويغضب ابن طاهر لذلك ، ولكن العميثل شاعر ابن طاهر المقرب إليه يقول له : أيها الأمير أتغضب على من حمل إليك أمله من العراق وكدّ فيك جسمه وفكره ، ومن يقول فيك :

يقول فى «توس» صحْبى وقد أخذت ... منّا السّرى وخطى المهرية القودِ
أمطلع الشمس تَنْوِى أن تؤم بنـا ... فقلت كلا ولكن مطلع الْجُودِ

فدعاه ابن طاهر يومذاك وخلع عليه ووهب له ألف دينار وخاتماً ثميناً كان فى يده .

وأبو تمام الكثير التجوال فى أنحاء العالم العربى وغير العربى ، حاملا صناعته وبضاعته من المديح ، يروى الصولى أنه ما كان أحد من الشعراء يستطيع أن يحصل على درهم واحد فى أيامه ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه[1] ! وهو حريص كل الحرص على «الزماع على السرى» لأنه قرين النجاح والغنى على ما يواجهه فى الرحيل الليلى من مخاطر ومشقات فى تلك الفيافى القاسية فى أبيات تخف فيها حدّة التلوين اللفظى عنده :

أَلَمْ تعلمى أن الزماع على السّرَى ... أخو النُّجْح عند النائبات وصاحبُه
دَعِينى على أخـلاق الصُّم للتى ... هى الوفر أو سِرْبٌ ترِنّ نَوادِبُه
فإن الْحُسام الهنـدوانى إنمـا ... خُشونتِه ما لم تُفَلَّلْ مضاربُه
وقلقل نَـأَى من خراسان جَأْشها ... فقلت اطمئنى أنْضَر الروض عازبُه
وركْبٍ كأطراف الأسِنَّة عَرّسـوا ... على مثلها والليل تَسْطُو مواهبُه
لأمـر عليهم أن تتمّ صـدوره ... وليس عليهم أن تتمّ عواقبُه

---

(١) الصولى : أخبار أبى تمام : ٢١٢

على كل رُوّاد المـلاطِ تهـذّبت   عَريكتـه العلياء وانضمّ حالبُه
رَعَتْهُ القيافى بعد ما كان حقْبةً   رعاها وماءُ الروض ينهلُ ساكبُه
فأضحَى الفَلَا قد جدّ فى برى نحضه
وكان زماناً قبـل ذاك يُلاعِبُـه[1]

رحيل البحترى :

والمجـد عند هؤلاء الشعراء يتمثل فى الرحيـل لإدراك الغنى ، والغنى يأتى من هبات الممدوحين ، ودائماً تبكى المرأة التى يهمها ألا يرحل الشاعر عنها ، مخوّفة إياه مغبة هذا الرحيل الذى لا تؤمن عواقبه ، ودائماً هو يصرّ على الرحيل مهما كانت النتائج . والمديح يستغرق شعر البحترى ، اللهم إلا قصيدتيه فى إيوان كسرى ، وفى الذئب الذى لقيه فى إحدى رحلاته الصحراوية ، وكذلك القليل من شعره فى حبيبته (علوة الحلبية)،وهو فى القصيدتين صاحب رحلة ، وهو فى سينيته الشهيرة عربى أصيل ما إن يعرض له ما يكدره فى مكان حتى يشدّ رحاله عنه بأقصى سرعة ، فهو لا يصبر أبداً على ما يمس كرامته من قريب أو بعيد :

ولقد رَابَنِى نُبوُّ ابن عمى   بعد لِين من جانِبَيْـه وأُنسِ
وإذا ما جفيت كنت حَرِيًّا   أن أُرَى غير مُصبح حيث أُمْسِى

وكما رحل أبو تمام إلى تلك البلاد التى لا تنطق العربية فقد رحـل إليها البحترى ومن بعده المتنبى ، وها هو البحترى يوجه عنسه إلى أبيَض المدائن ليخفف عن نفسه وقع الضائقة المالية التى أشار إليها فى أول هذه القصيدة :

حضرت رَحْلِىَ الهُموم فوجَّهْـ   ـت إلى أبْيَض المدَائن عَنْسى
أَتَسَلَّى عن الحُظُوظِ وآسى   لمحلٍّ من آلِ ساسانَ دَرْسِ

فقد التقى حظ هؤلاء الذين فقدوا كل هذا النعيم من ملوك الفرس مع

---

(١) ديوان أبى تمام : ٢١٩/١

حظه المالىّ العاثر ، وهو يعبر عن هذا الحظ بمصطلحات البيع والشراء فى رحلاته غير الموفقة بين العراق والشام :

بُلَغٌ من صُبابة العَيْش عِنْدِى   طَفَّفَتْها الأَيَّام تَطْفِيف بخسِ
وبَعِيــدٌ ما بين وارد رفــه   عَلَــلٍ شربه ووارد خمسِ
واشْتِرَائِى العراق خطــة غُبْنٍ   بعــد بَيْعِى الشامَ بيعةَ وكْسِ

وها هو يرحل من العراق والشام إلى بلاد لا تعرف العربية ، لكن غيره من الشعراء العرب قصدوها ومدحوا حكامها كما فعل أبو تمام مع آل طاهر ، والمتنبى مع بنى بويه ، إلا أن إيوان كسرى يستغرق هذه القصيدة وينزهها عن هذا الغرض المادى الذى أساء كثيراً إلى سمعة الشعر العربى .

وكما بدا البحترى فى أول السينية ناقماً على استمتاع أخس الناس فى نظره بوفر الحياة ونعيمها ، بينما لا يلاقى الكريم إلا شقاءها وبؤسها ، فهو مستمر فى هذه النقمة ، وليس أمامه إلا الرحيل عبر هذه المهامه الشاسعة المخوفة ، وخاصة فى الليل إلى حيث يبلغ أمله فى الغنى والثروة وتبديل هذه الحال البائسة إلى الأفضل ، وهو يواجه خطر الحيوانات المتوحشة فى تلك الصحارى ، ولكنه قادر على التعامل معها ، بل إن الثعالب والربد قد ألفته لكثرة رحيله فى تلك القفار ، أما ذلك الذئب الجائع الذى هاجمه فقد سدّد سهامه إلى حيث اللب والرعب والحقد منه ، فأرداه قتيلا ونال منه خسيساً ثم تركه وهو منعفر فرد :

وبَاكِيةٍ تَبْكِى الفراق بأَدْمُعٍ   يُبَادِرْنَهَا سُحًّا كما انْتَثَر العُقْدُ
رَشَادَكِ لا يحزُنْك بَيْنَ ابن هِمَّةٍ   يَتُوقُ إلى الْعَلْيَاء ليسَ لَهُ نِدُّ
فَمنْ كانَ حُرًّا فَهو للعَزْم والسّرى   ولليْل من أفعالِه والكَرَى عَبْدُ
وليلٍ كأن الصُّبح فى أُخْرَياتِه   حشاشة نصل ضم إفرنده غمدُ
تَسَرْبلتُه والذئب وسْنَانَ هَاجع   بعَيْن ابن لَيْلٍ ماله بالكَرَى عَهْدُ
أثِيرُ القطَا الكدرى عن جَثَماتِه   وتأْلَفُنى فيه الثَّعالِبُ والرَّبْدُ

وبعـد أن يصف قتله للذئب الجائع ، الذى حاول مهاجمتـه يعود إلى نقمته التى أبداها فى سينيته على أوضاع الحياة التى يشقى بها الحر الكريم ، ويسعد فيها المتقاعس اللئيم مصمماً على أن يواصل رحيله الليلى مواجهاً أشد الأخطار بعزم لا يلين :

أفى العَدْل أن يَشْقى الكَريمُ بجورِها ... ويأْخُذُ منها صَفْوها القُعْدُد الوَغْدُ

ذَرِينى من ضرب القِدَاح على السُّرَى ... فَعَزْمِىَ لا يُثْنِيه نَحْسٌ ولا سَعْدُ

سأَحْمِلُ نَفْسِى عند كلِّ مُلِمّـةٍ ... على مثل حَدِّ السَّيْفِ أخلصه الهِنْدُ

والشاعر العربى فى مثل هذه الأحوال التى يجد نفسه فيها فقيراً منذ العصر الجاهلى يصمم على أن ينال « المجد المالى » عبر رحيله فى تلك القفار المخوفة ، وخاصة أثناء الليل ، فإما أن يعطى ما يريد من المال طواعية واختياراً ، وإما أن يأخذه عنوة واقتداراً .

رحيل أبى الطيب المتنبى :

والآن لنصحب أكبر الشعراء العرب فى العصور الوسطى وأكثرهم رحيلا ، والواقع أنه إذا كان الرحيـل هو تاريخ الشعر العربى ، فإن الرحيل هو أيضاً تاريخ هذا الشاعر .. أبى الطيب المتنبى ، فمراحل حياته الفنية هى نفسها مراحل انتقاله من بلد لآخر من بلاد الشرق العربى وبلاد فارس .

ومعلوم أن هدف المتنبى فى مراحل حياته لم يكن كسب المال من شعر المديح فقط ، شأن غيره من شعراء المديح ، وإنما كان هدفه الصريح إعادة العرب إلى مكانهم من حكم الدولة التى أسسوها والتى يحكمها فى عصره الأجانب من فرس وترك وغيرهم ، مما كان يثير غضبه وسخطه إلى أبعد الحـدود كما هو واضح فى شعره . وهذا الهدف يجب أن يكون فى أذهاننا ونحن نعرض لمراحل رحيل المتنبى من مكان لآخر ، أو لمراحل حياته بمعنى آخر ، لأنه المفتاح الطبيعى لفهم هذه الشخصية ، وبسببه تأخذ حياة المتنبى وشخصيته وشعره أعماقاً لا تأخذها حياة شاعر آخر من شعراء المديح العادى .

والمتنبي كما نعلم عاش عصر انقسام الدولة إلى دولة مستقلة عن بغداد فعلا تابعة لها اسماً ، ولكنه عاش عصراً ذهبياً من تنافس هذه الدول على رعاية العلم والأدب وتباهى كل منها بمن تظله من أهل العلم والأدب والفن .

لقد رحل أبو الطيب صبياً من العراق إلى الشام ، وتنقل من مدنه بين منبج وأنطاكية واللاذقية وطبرية وطرابلس وطرسوس وجبل جرش والرملة ، وذلك فى ستة عشر عاماً من سنة ٣٢١ إلى سنة ٣٣٧ ، أى بين الثامنة عشرة والرابعة والثلاثين ، وذلك قبل أن يتصل بسيف الدولة ويقيم فى حلب تسع سنوات من ٣٣٧ إلى ٣٤٦ هـ .

وهو ينتقل إلى مصر ليقضى بها أربعة أعوام من ٣٤٦ إلى ٣٥٠هـ . ثم يقضى ثلاث سنوات فى العراق بعد عودته من مصر ، تليها رحلته إلى فارس ، إلى أن يقتل وهو فى طريقه إلى بغداد .

لقد درج شارحو ومحققو ديوان أبي الطيب على نسبة قصائده إلى البلاد التى نظمها فيها ، فهناك العراقيات الأولى ، ثم الشاميات التى قالها أثناء تنقله الكثير بين مدن الشام ، ثم السيفيات التى نظمها فى حلب ، فالمصريات ، فالعراقيات الآخرة ، وأخيراً قصائده فى فارس .

والواقع أن نسبة قصائد المتنبي إلى الأماكن التى نظمت فيها يدل على إحساس بأن كلا منها يكتسب طابع المكان الذى قيلت فيه ... لمَ لا وأبو الطيب نفسه يقول لمنتقدى شعره فى فارس : إن الشعر على قدر البقاع ، فهو نفسه كان يحس بأثر المكان على الشعر ومستواه .

والواقع أن أبا الطيب فى كل الأماكن التى حل بها لم يتأثر بما فى المكان من مظاهر الطبيعة والحياة بقدر ما تأثر بمن فيه من الرجال الذين اتصل بهم وتناولهم فى شعره .. وهل أدل على ذلك من أن طبيعة مصر وآثارها الشامخة لم يظفرا إلا بقوله :

وسمنا بها البَيْداءَ حتى تغمرت   من النِّيل واستذرت بظلّ المقطَّم

وقوله :

أَيْنَ الذى الهَرَمَانِ من بُنْيَانِه ... ما قومُه ما يومُه ما المصرعُ ؟

تتخلَّفُ الآثار عن أصحابها ... حيناً ويُدْرِكها الفَنَاءُ فتتبعُ

ولكن أبا الطيب كان مشغولا عن الطبيعة والكون بضيقه العنيف بحكم غير العرب للدولة التى أسسها العرب وخاصة حكمهم لبغداد ، وبسعيه الدائب إلى تغيير هذه الحال فى مراحل حياته المختلفة .

لقد ذكرنا أن رحيل أبى الطيب من مكان لآخر هو حياته كلها ، ولسنا نريد هنا أن ندرس حياته ، إنما يهمنا هنا أن نتلمس بصمات الرحيل فى شعره .

فى الشام :

كان الشام هو أول مكان رحل إليه أبو الطيب فى صباه من العراق :

تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً إلاَّ لخالقِه حكما

ومع هذا فهو لا يكف عن الرحيل فى هذا المكان الذى رحل إليه ، إن ممدوحيه أنفسهم يحاولون استبقاءه بكل وسيلة ، لكنه كاره للإقامة فى مكان واحد ، إنه متلهف دائماً للرحيل إلى غيره ، وهذا على بن أحمد يكرمه ويحمله على فرس ويسأله المقام عنده ، وهو متعجل للرحيل ، وهذا الرحيل ربما كان شاقاً على نفسه ولكنه مضطر إليه ، وها هو ذا يعتذر عن هذه العجلة بقوله :

لا تنكرنَّ رَحِيلى عنك فى عجلٍ ... فإننى لرحِيـــلى غير مختـــارِ

وربمـــا فَارَقَ الإنسان مُهْجتـــه ... يَوْمَ الوَغَى غير قالٍ خَشْيَة العـــارِ

وقـــد مُنيت بُحسّادٍ أُحـــارِبهم ... فاجْعَل نداكَ عليهم بعض أنصارى[1]

والذين يعرفون سيرة المتنبى يعرفون خلفية هذه العجلة ، فلو كان المتنبى كأحد شعراء المديح لوجد بغيته عند أول ممدوح ، لكن له هدفه السياسى

(١) الديوان : ١٥٣

المعروف وهو عودة العرب إلى مجدهم السياسى فى هذه الدولة التى يحكمها الأجانب فى عصره .. إنه مشغول بما سيفضى به إلى السجن فى الشام ، وإلى ما سيجعله يقيم فى حلب هـــذه الأعوام إلى جوار الأمير العربى سيف الدولة حتى بعد أن يوقن بأن حياته مهدّدة عنده ، فهو الأمير العربى الذى يتصدى للروم ويشفى بحربه لهم ما فى نفس أبى الطيب من غلّ على كل ما هو غير عربى فى تلك العصور ، وهو كذلك مشغول بما سيجعله يقيم فى مصر هذه السنوات الأربع فى حالة من « تحديد مكان الإقامة » عند كافور تضطره إلى ذلك الفرار الأسطورى من مصر . هو مشغول إذن بكل ما سيعرضه لتلك المتاعب . وينزل أبو الطيب على علىّ بن عسكر ببعلبك وهو يومئذ صاحب حربها ، فيخلع عليه — كما يذكر الديوان — ويحمل إليه ويمسكه عنده اغتناماً لمشاهدته .

ولكن أبا الطيب يريد الخروج إلى أنطاكية ، ويبدو أنه قد ضاق بعض الشيء بإلحاح ابن عسكر عليه فى المقام لديه ، فهو قد شرب من نبع كرمه حتى ارتوى ، وصار أحب ما يمكن أن يهديه إليه ممدوحه أن يتركه يرحل غير جاحد لما أسداه إليه :

رَوَيْنَـــا يا ابْنَ عسكرٍ الْهِمَامَا ولم يترك نَدَاكَ لنَا هُيَامَا[1]

وصار أَحبَّ ما تَهْــدِى إلينـــا — لغير قِلًى — وداعَك والسَّلامَا

ولم نَمْلل تَفَقُّـــدَكَ المـــوالى ولم تَذْمُم أَيَادِيك الجِسَـــامَا

ولكنَّ الغُمَــــامَ إذَا تَـــوَالَى بأَرض مُسافرٍ كَرِهَ الغمَـــامَا

إنه يرحل عن ممدوحيه الذين يكرمونه غاية الإكرام ، وهو أيضاً سريع الرحيل عمن ينكر جانبهم من الأصدقاء ، شأنه فى ذلك شأن العربى الذى يتخذ الرحيل السريع فى المهامه المخوفة دواءً لألم نفسه ، إنه يقول لبدر بن عمار والى حرب طبرية :

ومَهْمَهٍ جُبْتُـــه عَلَى قَـــدَمى تعجزُ عنـــه العرامسُ الذللُ[2]

---

(١) الديوان : ٢٢٣

(٢) الديوان : ١٢٥

بصارمي مرتد بمخبرتي ‏ ‏ ‏ ‏ مُجْتَزِئٌ بالظَّلام مُشتملُ

إذا صَديقٌ نكرتُ جانبه ‏ ‏ ‏ ‏ لم تعيني في فِراقه الْحِيَلُ

في سِعَةِ الخَافِقَيْنِ مضطربٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وفي بلادٍ من أُختها بَدَلُ

وأبو الطيب يحتال احتيالا على الرحيل لأن كان يجد في تلك البلاد إكرماً لعل شاعراً آخر لم يجد له مثيلا ، ويكفي أن من الممدوحين من كان يجلس شاعرنا في مكانه هو بعد أن نال مديح أبي الطيب بكثرة الإلحاح والرجاء ، وكان من الواضح أن الناس في هذا الوقت المبكر من حياة الشاعر كانوا يشعرون بأن شعره مكتوب له الخلود . فكانوا يتسابقون تسابقاً إلى نيل شرف مديحه ، وظلت هذه هي حال أبي الطيب ، لا مع علية القوم والأمراء فقط ، بل مع الملوك أيضاً .. وواضح من قوله :

في سِعَةِ الخَافِقَيْنِ مضطربٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وفي بلادٍ من أُختها بَدَلُ

أن يمثل بذلك العربي القح الذي يرتحل من مكان لآخر بكل يسر ولأقل سبب ، وهو قد يحنّ لمن سكنوا هذا المكان ويأسى لفراقهم ولكن لا يحنّ للمكان نفسه ، فأهمية المكان عند الشاعر الجاهلي في أنه يحمل ذكريات المحبوبة ولكن لا أهمية للمكان في ذاته ، ويبدو أن تشابه الصحراء الشاسعة في ملامحها الأساسية ، وفقرها في المعالم المميزة لها حيث لا استقرار يساعد على الإنشاءات طويلة العمر ، وكذلك خلوها النسبي من جمال الطبيعة هو سبب ذلك ، فأهم ما تعلق به الإنسان في هذه البيئة هو الإنسان المحبوب ، وهذا الإنسان المحبوب هو نفسه دائم الرحلة من مكان لآخر . وقد حملت نفس المتنبي العربي هذه السمة الأساسية ، فهو كما ذكرنا لا يعبأ بما في المكان وإنما بمن في المكان ، وهذا بالإضافة إلى انشغاله بهدفه السياسي هو الذي جعل شعر الطبيعة عنده نادراً .

وأبو الطيب كثير الرحيل في هذه المرحلة الشامية من حياته ، كثرة دعت معاصريه إلى الدهشة والتساؤل ، بل دعتهم إلى الشك والريبة في أمره :

يقُولونَ لي ما أَنْتَ في كلِّ بلدةٍ ‏ ‏ ‏ ‏ وما تَبْتَغِي .. ما أَبتغي جَلَّ أَنْ يَسْمَى

وهو فى هذه السن المبكرة لا يبالى بأن يرد هذا الرد المغامر الخطير :

كأنَّ بَنِيهم عالمــــونَ بأنَّــنى جَلُوبٌ إليهم من معــادِنِهِ اليُتْما

وهو — كما ظل إلى آخر سنوات حياته — يرى السيف محققاً لما تصبو إليه نفسه ، ولما صرح به مرات فى شعره من ضيق شديد بحكم الأعاجم :

وما الجمعُ بينَ الماءِ والنارِ فى يَدِى بأَصْعَبَ منْ أنْ أجمعَ الْجِدَّ والفَهْمَا[1]

ولكنَّنى مُسْــتَنْصِرٌ بِذُبابِــه ومرتكِبٌ فى كلِّ حالٍ به الغشمَا

وجاعِــلُهُ يَوْمَ اللِّقَــاءِ تحيَّتِى وإلاَّ فلسْتُ السَّيد البَطَلَ القرمَا

والمتنبى بتصريحه بهدفه السياسى كان أشبه بالعربى الذى يصرح باسم محبوبته فى شعره فيحرم عليه الزواج منها ، كلاهما فى حاجة إلى المداراة والكتمان ، وأين هما من الشاعر ؟ ولقد خيل إليه أنه يستطيع الجمع بين القلم والسيف ، أو بين الماء والنار فى يده ، ولكنه هو الذى قال بعد فراره من مصر :

حتى رجعت وأقــلامى قــوائِل لى المجدُ للسَّيْف ليس المجدُ للقَلَم

وكثرة رحيل أبى الطيب وتنقله لم يثر ريبة وتساؤل ذوى الشأن عنده ممن سيعمل فيهم السيف ، وإنما أثار ريبة وتساؤل تلك الفئة التى كان عليه أن يصحبها فى رحلاته فى بوادى الشام من لصوص الإبل :

ومُدْقعِين بســـبروتٍ صحبتهمُ عارِين من حُلل كاسِينَ من دَرَن[2]

خُرَّاب بادِية غَرْثَى بُطـــونهم مكن الضِّباب ، لهم زادٌ بلا ثمنِ

يستخبرونَ فلا أُعْطِيهم خَبرى وما يَطِيشُ لهم سَهْمٌ من الظِّنَنِ

وخِــلَّةٌ فى جَليسٍ أَتَّقِيــهِ بهــا كَيْمَا يَرَى أننا مِثلانِ فى الوَهَنِ

وكلمةٍ فى طريق خِفْتُ أعربهــا فيهتَدِى لِى فلَمْ أَقْدِرْ على اللَّحَن

(١) الديوان : ١٦٢

(٢) الديوان : ١٥٦

فهو مضطر إلى مصانعة مثل هذه الفئات من الناس فى رحيله فى تلك البوادى المخوفة ، ولعل ذلك ما جعله يفضل أحياناً أن يرحل وحيداً مواجهاً أخطار الطريق وحده بوحوشه الكاسرة ولصوصه وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، ويذكر الديوان[١] أنه اجتاز فى بعض أسفاره ، وهو وحده فى الليل ، مكاناً يعرف بالفراديس ، وكان راجعاً من برية خساف ، يريد حاضر طىء ، فسمع زئير الأسد ، فقال ارتجالا :

أَجَارُكَ يا أُسْدَ الفراديس مكرم ... فتسكُنْ نَفْس أم مهان فمسلمُ ؟
ورائى وقُـــدَّامِى عُـــدَاةٌ كثيرةٌ ... أُحاذِرُ من لِصٍّ ومنكِ ومنهمُ
فهلْ لكَ فى حِلْفِى على ما أُريده ... فإنى بأَسْـــبابِ المعيشةِ أَعْـــلَمُ
إذَنْ لأَتَاكِ الرِّزْق من كل وجهةٍ ... وأَثْرَيْت مِمَّا تَغْنَمِـــينَ وأَغْنَمُ

فشاعرنا فى أول رحيل له إلى الشام لا يكف فيه عن الرحيل . إن نفسه المضطربة القلقة الساخطة على الأمور فى تلك الأيام لا تدع له مجالا للاستقرار ، وهو استقرار لو أراده لناله بعد أن بدأ نجمـــه يعلو وعلية القوم وأمراؤهم يتهافتون على استضافته ، ولكن الرحيل هو شفاء نفسه وقلق جسمه هو الاستجابة التى تتوافق مع قلق نفسه ، لقد ألف الكثير وبات لا يستقر إلا على ظهر راحلته ، إنه لا ينوى أن يطيل المقام بأرض .

وما معنى هذا ؟ أليس معناه أنه يعيش التمزق النفسى فى أشد صوره ؟

أَلِفْتُ ترحُّـــلى وجعلتُ أَرضى ... قتودى والعُريرى الجُـــلالا[٢]
فما حاولتُ فى أَرضٍ مقـــاماً ... ولا أَزْمعت عن أَرضٍ زَوَالا

وهو لا يركب بعيراً أو جواداً ، بل يركب الريح ، وقلقه واضطرابه يوجهانه الوجهة التى تعبر عن هـذا القلق والاضطراب .. إنه لا يدرى ما يفعل إلا أن يرحل وأن يكثر الرحيل ويسرع فيه :

---

(١) ص : ١١١
(٢) الديوان : ١٢٩

عَلى قَلَقٍ كأَن الــرِّيح تحــتى أُوَجِّههـــا جَنُــوباً أو شمالا

ولكن هذا هو الشيء الطبيعي بالقياس إلى العربي منذ القدم .. الرحيل الدائم هو شفاء نفسه .. وأبو الطيب إنما يعبر بسلوكه هـذا عن نفس عربية حقيقية ، فهو قلق مضطرب متألم من حال ما وليس له من دواء إلا تغيير المواضع والبلاد ، والمتنبي يتعاطى هذا الدواء تلقائياً وبالفطرة الأصيلة حتى لو لم يكن هناك هدف واضح محــدد لكل هــذا الرحيل الكثير السريع فى بلاد الشام .

فى حلب :

فى سنة ٣٣٧ التقى أبو الطيب بسيف الدولة أمير حلب فى أنطاكية عند أميرها أبي العشائر الحمدانى ابن عم سيف الدولة ، ومدحه الشاعر بقصيدتين أظهرتا سرّ إعجاب المتنبي بأمير حلب متمثلا فى نشاطه الهائل فى الغزو . وينتقل المتنبي إلى حلب ليقيم فيها تسع سنوات متصلة من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦ ﻫ ، ولا أدرى لماذا يخيل إلينا أحياناً أن هذه الفترة كانت فترة استقرار للمتنبي . فالواقع أنها لم تكن كذلك ، لأن سيف الدولة نفسه لم يكن يقرّ له قرار ، فقد كان دائم الرحيل إلى حيث يغزو أعداءه من الروم أو أصحابه من القبائل البدوية التى كانت تثور عليــه ، بل إن أبا الطيب نفسه حثّ أميره على الرحيل حين عرضت للأمير علة أقعدته أياماً عن السير والقتال مما ذكره المتنبي فى الديوان ، فقد روى ابن جنى أنه سأل المتنبي عن قصيدته التى مطلعها :

سِرْ حلّ حيث تحله النّوار وأراد فيك مُرَادَكَ المقدارُ[1]
وإذا ارتحلت فشيعتك سلامةٌ حيث اتجهت ودعةٍ مدرارُ

وفيها يقول :

لله قلبك ! ما تخافُ من الرَّدَى وتخافُ أن يَدْنُو إليك العارُ
وتُحيد عن طَبْع الخلائق كُله ويُحِيدُ عَنْكَ الْجَحْفَلُ الْجَرَّارُ

---

(١) الديوان : ٢٦٨

وكان رد أبي الطيب أن سيف الدولة كان قد ترك الركوب مدة لعلة فحرّكته بهذا [١] !

فأبو الطيب ينتقل إلى حلب بنفس الروح التى كان عليها ، روح الرحيل الدائب ، بل هو يحث ممدوحه عليها مع أنه صاحب الغزوات التى ملها ضوء الصباح وظلام الليل وصدور القنا وحديد الهند كما يقول الشاعر فى أول قصائده فيه . بل ماذا نقول ؟ هل زادت تلك القصائد الحماسية المتوهجة نار سيف الدولة اشتعالا على اشتعال ؟ لا شك فى ذلك . فلم يكن هذا الشعر مجرد وصف لتلك الحروب ، وإنما هو أيضاً وقود يزيدها حدة وقوة ، وهو يريد لها أن تتأجج أكثر فأكثر ضد الروم الذين كانوا من هؤلاء الأعاجم على أى حال ممن نعرف غضب المتنبى الهائل على حكمهم لدولة العرب ، ومن جانب آخر يريد لهذه الحروب أن تخمد جذوتها مع العرب الذين كان سيف الدولة يلجأ إلى قهرهم كلما حدثت أحداث توجب ذلك ، فهو شعر كان يريد توجيه هذه الحروب أيضاً .

والمتنبى مرتحل مع سيف الدولة فى تلك الغزوات ينزل البلاد ، ويصعد الجبال ويعبر الأنهار مع جيشه ، إنه يمر بسمندويه [٢] ويعبر آلس هذا النهر العظيم ، وينزل فى إحـــدى حروبه على صارحة ، فيحرق ربضها وكنائسها وكذلك ربض خرشنة وما حولها ، ويكثر القتل والتدمير فى تلك الحروب الدينية التى ستزيد بعـــد ذلك اشتعالا فى بلاد الشام وستملأ العصور الوسطى بدمائها ومآسيها ، وسيف الدولة ينهزم فى هذه الموقعة ، ، فالروم يضبطون عقبة السير ، وهى عقبة طويلة صعبة ، فلا يستطيع لها صعوداً لضيقها وكثرة العدو بها ، فيعدل إلى طريق وصفه له بعض الأدلة ، ويصيب التعب الشديد الرواحل والمحاربين ، ويتخاذل الناس بعد أن كان السفر الطويل قد أخذ منهم كل مأخذ . ويقول أبو الطيب فى هذه الموقعة :

غيرى بأكثر هذا النَّاس ينْخَدِع   إنْ قاتَلُوا جبنوا أَوحَدَّثُوا شجعوا

---

(١) الديوان : ٢٦٨

(٢) الديوان : ٢٩٨

ويصف بعض ما دار فى هذه الحرب ممتدحاً شجاعة سيف الدولة ، زارياً على من تخاذلوا فيها :

وهَـــلْ يُشِينُك وقت كنت فارسه ... وكان غَيْرك فِيـــه العَاجزُ الضرعُ

لقـــد أَبَاحَكَ غِشًّا فى مُعاملـــة ... مَنْ كنت منه بغيرالصِّدقِ تنتفعُ

وهو يدعوه إلى معاودة الكرة :

الدهرُ مُعْتَـــذِرٌ والسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ ... وَأَرْضُهم لك مُصْطَافٌ ومُرتبـــعُ

لكن سيف الدولة يشفى كمد أبى الطيب فى غزوة يكون النصر فيها حليفه :

لَقِيتُ بدَرْب القِلَّة الفَجر لقية ... شَفَتْ كَبدِى واللَّيْل فيه قَتِيلُ

وما أحب الرحيل والتقتيل إلى نفس المتنبى ! ولمَ لا والرحيل والحرب هما مدار الشعر الجاهلى كله ؟ وفى هذه القصيدة يصف المتنبى كعادته وبمتعة كبيرة مافى الحرب من رحيل إلى دلوك وصنجة وموزار وهنريط وسمنين وسميساط وغيرها من المدن والحصون :

هُمامٌ إذا ما هَمّ أَمْضَى هُمُومَـــه ... بأَرْعَن ، وَطْءُ الموتِ فيه ثقيلُ

وخَيْلٌ بَراهَا الركض فى كلِّ بلدةٍ ... إذا عرَّست فيها فليس تقِيلُ[1]

فلما تجلَّى من دلوك وصنجـــةٍ ... علَتْ كلّ طَوْدٍ رايةٌ ورعيلُ

على طرق فيها على الطرق رفعةٌ ... وفى ذِكْرِها عند الأَنيس خُمولُ

وها هى الخيل تكرّ على ملطية والفراة وهنريط وسمنين وغيرها :

وكَرّت فمرّت فى دماء ملطيـــةٍ ... ملطيـــةُ أُمٌّ للبَنين ثكُــــولُ

وأضعفن ما كَلَّفنــــه من قُباقبٍ ... فأَضْحَى كأَن المـــاءَ فِيـــهِ عَليلُ

---

(١) الديوان : ٣٤٩

ورعن بنـــا قلبَ الفُـــراتِ كأنما ... تخـــرّ عليـــه بالرجال سُيولُ
يُطارِدُ فيـــه موجه كل سابحٍ ... سَـــوَاءٌ عليـــه غمرةٌ ومَسِيـــلُ
وفى بطن هنريطٍ وسمنين للظبى ... وصُمّ القنا مِمَّنْ أَبدنَ بَدِيلُ

لقد كان الشاعر يصحب الأمير فى جولاته وصولاته مع الروم ومع الذين كانوا يسببون له المتاعب من الأعراب ، ولأنه لم يصحبه فى إحداها فقد وصفها له سيف الدولة ، لأن الشاعر يحب أن يذيع بصوته الجلى الخالد كل حروبه وأعماله ، وذلك فى قصيدته التى مطلعها :

طـــوال قنـــا تُطاعِنها قصـــــارُ ... وقطـــرك فى ندى ووغى بحارُ

لقد كان المتنبى سعيداً حقاً بذلك الأمير الذى يشفى أوامه رحيلا وحرباً، سعيداً بذلك الرحيل المستمر وذلك القتال الذى لا يهدأ ، ولا ينفك يؤجج ناره ويزيد أواره ، والأمير سعيد بذيوع غزواته وبطولاته ، حتى أصبح شعر أبى الطيب عنده نوعاً من الإدمان ، وإذا به يطلبه فى كل وقت ، ويغضبه أن يتأخر عنه مديح شاعره ، ويضيق الشاعر ويعتذر للأمير ، ويحاول إرضاءه بكل وسيلة دون جدوى ، فالأمير ماض فى التضييق على شاعره بطلب الشعر فى كل وقت ويسىء إليه فى مجلسه حين يتأخر شعره . وأخيراً يفلت الزمام وينفجر الشاعر غاضباً ، وتكون قصيدته التى هدّد الأمير فيها بالرحيل عنه بعد أن يلومه لوماً يشتد فيه عليه ، فهو أعدل الناس إلا فى معاملة شاعره ، وهو لا يصدق أن الأمير لا يفرق بين الشحم والورم ، ولا يقدّر شاعره العظيم حق قدره ، لكن لكل شىء حداً ، ولصبر أبى الطيب وإغضائه حد أيضاً ، وله من عزمه ما يجعله يركب جواده السريع :

ومُهجـــة مُهجتى من هَم صاحبها ... أدركتها بجواد ظهره حرمُ [1]
رِجلاه فى الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تُريدُ الكفّ والقَـــدَمُ

---

(١) الديوان : ٣٢٤

ومع ذلك فإن فراق أحبته يعز عليه ، لأن كل وجود بعدهم عدم :

يا مَنْ يَعِزُّ علينـا أن نُفَارِقهم   وِجْداننا كل شيء بعدكُم عَـدَمُ

وهو حين يرحـل عن أحبابه فهم وحدهم النادمون ، ولن يكون هو الراحل عنهم ، بل إنهم هم الذين عنه يرحلون ، لأنهم هم الذين يفرطون فيه وفى صحبته :

أَرَى النَّوَى تقْتَضِينِى كل مرحلة   لا تستقل بها الوخادة الرُسُمُ[1]

لئن تركَنُ ضُميْراً عن مَيامِننـا   ليحدثنّ لمـنْ ودعتهم نَدَمُ

إذا ترحّلـت عن نَوْمٍ وقد قدرُوا   أَلاَّ تُفَـارِقهم فالراحِـلُونَ هُمُ

والحق أن أبا الطيب لم ينفك عن شن الحرب على شعراء سيف الدولة الآخرين ، وكأنه لم يكن يستريح إلا إذا خلق له أعداء فى كل مكان ، وفى هذه القصيدة إشارة من إشارات عديدة إلى هذه الحرب بينه وبين شعراء سيف الدولة :

شَرُّ البـلاد مكانٌ لا صَدِيق به   وشَرّ ما يكسب الإنسان ما يصمُ

وشَـرّ ما قَنَصتـه راحتى قنصٌ   شهب البزاةِ سَواءٌ فِيـه والرخَمُ

بأَى لفظٍ تقولُ الشعر زعنفـةٌ   تجوزُ عِنْدَك ، لا عربٌ ولا عَجَمُ ؟

ويتعرض الشاعر بعد إلقاء هـذه القصيدة لمحاولة اغتياله ممن يدّعون أنهم غلمان أبى العشائر ، ويختفى أبو الطيب عند صديق له ، وتستمر المراسـلة[2] بينه وبين سيف الدولة الذى ينكر أن يكون قد أمر بما جرى لشاعره . ولا يطاوع الشاعر قلبه على فراق الأمير الذى أحب ويعود إليه قائلا :

رأيت الموت عندك أحب إلىّ من الحياة بعدك .

---

(١) الديوان : ٣٢٥

(٢) الديوان : ٣٢٧

وتعود المياه إلى مجاريها بين الشاعر والأمير ، وينظم فيه مجموعة من قصائده الحماسية المتوهجة ، ولكن التئام ما انكسر من المودة لا يعود كما كان ، وسرعان ما يعود الأمير إلى إدمانه الثقيل على طلب المديح من شاعره ، ويعود إلى ازوراره وغضبه ، ويعود الشاعر إلى محاولة استرضائه معتذراً مسترضياً ، وأخيراً يكون فراق أبي الطيب لأميره وقصده إلى كافور حاكم مصر فى سنة ٣٤٦ هـ .

ولعلنا فى هـــذا العرض السريع قد تأكد لنا أن فترة حلب من حيـاة أبي الطيب لم تكن استقراراً ، إنما كانت فى أكثرها رحيلا مع سيف الدولة ، ثم تهديداً بالرحيل عنه ، وأخيراً ذلك الرحيل الذى لم يمكن منه بدّ بعد أن ساءت حال أبي الطيب مع أميره فى وسط خلق الشاعر فيه لنفسه الأعداء وأكثر الحساد بسبب هجومه الشديد المستمر على شعراء الأمير الآخرين .

فى مصر :

ويبدأ رحيل جديد للشاعر ، وتبدأ مرحلة جديدة لها لون جديد يمنع فيها الشاعر الذى يعشق الرحيل ، الرحيل ! فقد أقام كما يقيم من تحدّد إقامته ، ولا شك أن للسياسة دورها فى ذلك ، فأبو الطيب الذى لم تكن علاقتـه ببغداد حسنة يوماً ما لم ينفك عن التعريض بالخلافة عند سيف الدولة :

فيا عَجَباً من دائل أَنْتَ سَـيْفَه　　　أما يَتَوَقَّى شـفْرتى مَنْ تقلَّدَا
ومَنْ يَجْعَل الضُّرْغام للصَّـيْد بازه　　　تَصَيَّـدَه الضُّرْغامَ فيما تَصَيَّدَا

وفى أول قصيدة ينشدها كافوراً يشير إلى البصرة والكوفة والولاية عليهما من جانب هذا الذى قصده راجلا :

وغير كَثيرٍ أَن يَزُورَكَ راجِـلٌ　　　فيرجِـع ملكاً للعـراقين وَالِيا

ومعروف أن الكوفة كانت المنطلق الاستراتيجى إلى بغداد ، فقد كان الاضطراب يسود بغداد حين ينجح القرامطة فى الاستيلاء على الكوفة ، وعلاقة المتنبى بالقرامطة فى الكوفة وهى مسقط رأسه ، مما تحوم حوله

الشبهات ، فهى إشارة ممعنة فى الخطورة بلا شك ، وتمضى الأيام ويتضح لنا أن الشاعر لا يطلب من كافور مالا أو إقطاعاً ، فقد كان المال والإقطاع مما وهبه إياه سيف الدولة ، إنما هو يريد شيئاً آخر أكبر وأهم وأخطر :

فارْم بى ما أَرَدْتَ مِنّى فإنّى ... أَسَدُ القلبِ آدمىّ الرُّواء

وفُؤادِى من الملُوك وإنْ كا ... نَ لِسَانِى يُرَى مِنَ الشعرَاء

والوعد الذى كان بينهما ليس هناك أبداً ما يشير إلى أنه كان إقطاعاً أو نحو ذلك ، يؤكد هذا قول أبى الطيب :

وَوَعْدُك فِعْلٌ قبل وَعْدٍ لأنَّهُ ... نظير فِعَال الصَّادِق القَوْلِ وَعْدُهُ[1]

فكُنْ فى اصْطِناعى مُحْسِناً كمجربٍ ... يَبنْ لك تقريبُ الْجَوَادِ وشَدُّهُ

إذا كنتَ فى شَكٍّ من السَّيْف فَابْلُه ... فإمَّا تُنَفِّيه وإمَّا تُعِدُّهُ

ثم يقول :

وما رَغْبَتى فى عَسْجَدٍ أَستفِيدُه ... ولكِنَّها فى مفخَرٍ أَسْتجِدُهُ

كان هناك إذن وعد سابق من كافور للمتنبى ، ولكن موضوعه لم يكن مالا أو إقطاعاً ، بل كان شيئاً أهم وأخطر بكثير ، يتعلق بالهدف الذى عاش له أبو الطيب طيلة حياته ، وهو إذا لم يكن قد أفلح فى إثارة سيف الدولة ضد بغداد فلعله يفلح فى ضرب الحكم التركى الذى يمثله كافور فى مصر بالحكم الفارسى فى بغداد ، على كل حال ليس هنا مجال مناقشة قضية وعد المتنبى فى مصر ، وإنما يهمنا منها أنها كانت سبباً فى ذلك التحديد لإقامته فى مصر ، وحين يئس المتنبى من تحقيق كافور لوعده له أراد الرحيل ، لكن كافوراً أصرّ على بقائه مما جعله يقول :

لَوْ كانَ ذَا الآكِلِ أَزْوَادنا ... ضَيْفاً لأَوْلَيْنَاهُ إحْسَانا[2]

---

(١) الديوان : ٤٥٤

(٢) الديوان : ٤٨٤

لَكِنَّنَــا فى العَــيْن أَضْيَــافَه يُوسِعنَــا زُوراً وبُهْتَــانا
فَلَيْتَــهُ خَــلّى لَنَــا طرقنا أعــانَهُ اللهُ وإيَّانَــا

وتوجس أبو الطيب خيفة ، ويروى ابن جنى أن أبا الطيب كتب إلى كافور يستأذنه فى المسير إلى الرملة لينجز مالا له بها حتى يعرف ما عند كافور فى أمر مسيره من مصر ، ورد عليه كافور بأنه يكلفه عناء المسير لإنجاز ماله وإنما ينفذ رسولا يأتى بماله إليه ، مما جعل شاعرنا يحس آنذاك أنه رهن الاعتقال وأنه ليست له حرية الرحيل :

أَتَحْلِفُ لا تُكَلِّفنى مَسِيراً إلى بلدٍ أُحاوِلُ فِيهِ مَالاَ[1]
وأَنْتَ مُكَلِّفى أنْبى مَكاناً وأبعد شُقَّة وأَشَدّ حَالاَ
إذا سِرْنَا عن الفُسْطَاطِ يَوْماً فلقنِّى الفَوارِس والرِّجالا
لِتَعْلَمَ قدر مَنْ فارقت مِنِّى وأَنَّكَ رُمْت من ضَيْمى مُحَالا

وفى قصيدة الحمى الشهيرة تظهر لنا معاناة شاعرنا بسبب منعه من الرحيل . إنها تجربة فريدة مثيرة بالنسبة للرجل الذى لم يتعرض لهذا المنع من قبل ، لقد تعود أن يرحل دائماً ، وهو يرحل عن أحبابه وعن غيرهم بيسر تام ، أما الآن فهو أمام موقف جديد ، وهو يبدأ هذه القصيدة بوصف شوقه للرحيل فى الصحراء :

مَلُومكُما يَجِلّ عن المَلام ووقْع فعاله فوق الكَلامِ[2]
ذَرَانى والفَلَاة بلا دَليلٍ ووَجْهى والْهَجِير بِلاَ لِثَامِ
فإنِّى أَستريح بِذِى وهذا وأَتْعَبُ بالإناخةِ والمقامِ
عُيُون رَوَاحِلِى إنْ حِرتُ عَيْنى وكل بغام رازِحةٍ بغامِى

(١) الديوان : ٤٨٥
(٢) الديوان : ٤٧٥

إنه يشكو إقامته بأرض مصر محروماً من متعة حياته فى الرحيل الدائم :

أَقَمْتُ بأَرض مِصْرَ فلا ورائى ... تخب بى الركابِ ولا أَمَامى
وملنىَ الفراش وكان جنبى ... يَمَلُّ لقاءَهُ فى كلِّ عامِ
قليلٌ عائدى سقِمٌ فؤادِى ... كثيرٌ حاسِدى صعبٌ مرامِى
عَلِيلُ الجسم ممتنعُ القيامِ ... شديدُ السكر من غير المدامِ

إن شوقه إلى الرحيل لعظيم ، وهل يشفى غليل صدره إلا الترحال وأدوات القتال ؟ هذا الترحال المستمر الذى يجعله يفارق أحبته بلا وداع وبلاده بلا سلام :

أَلَا يالَيْتَ شِعر يدى أَتمسى ... تصرّف فى عَنانٍ أَو زِمامِ[1]
وهلْ أَرْمى هَوَاىَ براقصاتٍ ... محلاةِ المقاوِدِ باللُّغامِ
فربّتما شَفَيْتُ غَليلَ صَدرِى ... يَسِيرٍ أَوْ قناةٍ أَوْ حُسَامِ
وضاقَتْ خطة فخلَصْتُ منها ... خلاصَ الخمر من نَسْجِ الفِدامِ
وفارَقْتُ الحَبِيبَ بِلَا وَدَاعٍ ... وَوَدّعْتُ البلادَ بِلَا سَلَامِ

إن مرضه ليس بسبب الطعام والشراب ولكن بسبب منعه من الرحيل ، فهو الجواد الذى تعود أن يخوض غمرات القتال وغمارها :

يقولُ لى الطَّبِيبُ أَكَلْتُ شيئاً ... وداؤك فى شَرابكَ والطعامِ
وما فى طبه أَنى جَوَادٌ ... أَضَرّ بجسمه طُول الجمامِ
تعوَّدْ أَن يُغَبِّر فى السّرَايا ... ويدخُلَ من قتامٍ فى قتامِ
فأُمْسك لا يُطالُ له فيرعَى ... ولا هُوَ فى العليق ولا اللِّجامِ

---

(١) الديوان ٤٧٧

ولبث المتنبي يعد خطة فراره من مصر سراً وهو يدارى كافوراً أو يمدحه حتى أعدّ الإبل وخفف الرحل [1] ونظم قصيدته الشهيرة فى العيد فى يوم عرفة من عام ٣٥٠ هـ قبل مسيرة من مصر بيوم واحد .

وإذا كانت إقامة المتنبي رغماً عنه فى مصر موقفاً فريداً فى حياته ومحاطاً بقدر من الإثارة والغرابة ، فإنه لأشد إثارة وغرابة رحلة فرار هـذا الشاعر الكبير من مصر . إنها رحلة تقترب اقتراباً شديداً من الأسطورة ومن جوها ، وتتخللها من أحداث المغامرة والفروسية ما لا يكاد الإنسان يصدق أنه يصدر من شاعر حقاً ، ولم يكن المتنبي شاعراً فحسب ، ولو كان كذلك لكان كغيره من الشعراء ، لكن الشاعر فيه هو الواجهة فقط ، وقصة الرحيل مروية بكاملها فى الديوان الذى حققه طيب الذكر الدكتور عبد الوهاب عزام . فلنلم بأهم أحداثها قبل أن نلتقى بشعر أبى الطيب فى هذه الرحلة المثيرة من مصر إلى الكوفة ، ولعل أهم ما يتبين لنا من هذه القصة هو اتصال المتنبي بالعرب فى بوادى مصر ومكاتبته لهم قبل الرحيل وأثناءه ، وقد لعب بعضهم فى أول الرحلة دوراً هاماً فى نجاحها ، بينما واجه المتنبي غدراً ممن يدعى وردان طىء ، ولكنه استطاع بحنكة وفروسية رائعة أن يتم رحلته بسلام .

لقد رحل المتنبي فى هدوء متسللا من حراسة كانت مفروضة على منزله ومن عيون كانت ترصد حركاته ، ولم يعثر له أحد على أثر حين تبعه من تقول القصة إنهم « البادية والحاضرة ومن وثقوا به من الجند الذين كتبوا إلى عمالهم بالحوفين والجفار وغزة والشام » [2] ، وكان ملاعب بن أبى النجم قد أرسل من يدله على الطريق ، وكذلك فعل عفيف المعنى ، فنزل ببيوت سليم ثم ببادية من معن وسنبس ، وحين دخل حسمى لم ينزل بصديقه أمير فزارة حسان بن حكمه ، وإنما نزل بجار له يدعى وردان سالف الذكر حتى لا يعلم أحد بما بينه وبين حسان ، وقد أفسد وردان عبيد أبى الطيب عليه بوسائل غير كريمة ، وحين أحس الشاعر بذلك وعرف أن كافوراً قد راسل

---

(١) الديوان : ٤٨٥

(٢) الديوان : ٤٨٩

العرب المحيطين به فى أمره شدّ بنفسه على الإبل متاعه ، ثم أيقظ عبيده وطرحهم عليها ، وسار تحت ستار الليل ، وفى هذه الأثناء حاول أقوى عبيده الفرار بسيف ثمين لأبى الطيب على فرسه ، فالتقى الاثنان على ظهر الفرس ، وقتل أبو الطيب العبد ، وكان المتنبى قد أرسل رسولا إلى عرب يطلبها ، فلما لم يجد الرسول بغيته واصل شاعرنا رحلته المثيرة التى تخللتها مطاردات بينه وبين بعض قطاع الطريق فى الصحراء .. واصلها حتى دخل الكوفة فى ربيع الأول سنة ٣٥١ هـ. ونرى تسجيلا لمراحل هذه الرحلة فى قصيدة المتنبى التى مطلعها :

أَلَا كُلّ ماشِيةِ الْخَيْزَلى ... فِدَى كُل ماشِية الهيدبِى

وهى قصيدة لها إيقاع الرحلة وتحتوى على لمسات فنية لها قيمتها . ولكنها نظمت فى سرعة أشبه بسرعة الراحل على وجل ، إلا أنه خلد هذه الرحلة حقاً بميميته الرائعة :

حتّام نحن نُسَارِى النَّجم فى الظُّلَمِ ... وما سراهُ على خُفٍّ ولا قَدَمِ [1]

وأنا أحس كلما قرأت هذا البيت وما يليه أن الكلمات تأتى كما تأتى النغمات من أفق بعيد ، فيها انسياب وقوة وضخامة تملأ السمع والقلب والفكر ، ولعل مصدر هذا الإحساس هو وحدات الصورة المكونة من النجم والظلمة والسرى ، لكن هذا النجم لا يعانى ما يعانيه الراحلون من البشر ، فليس له ساق ولا قدم ينالها التعب ، وليس له ما لهذا الغريب الذى لم ينم ليله من أجفان تعانى ألم السهر والإجهاد فى سفره الطويل المجهد فى ظلام الليل :

ولا يحسّ بأَجفانٍ يحسّ بها ... فقْدَ الرُّقادِ غَرِيبٌ باتَ لم يَنَمِ

وها هى الشمس تشرق على هذا الغريب الذى لم يذق طعم النوم ، ولا تزال تلفح وجهه بحرارتها فتسوده ، لكنها لا تسوّد تلك اللمم التى شابت من كثرة ما يلقى من هموم الحياة . .

---

(١) الديوان : ٥١٠

وهذا التحول من البياض إلى السواد ومن السواد إلى البياض فى هذه الحياة هو حال واحدة ، لأن الضد مع الضد هما فى الحقيقة وجهان لنفس الشيء ، أليس الضد هو انتفاء الضد ؟ فالنور هو انتفاء الظلام والوجود هو انتفاء العدم ؟

تُسوّد الشمس مِنّا بِيضَ أَوْجُهنا ... ولا تسوّد بِيضَ الْعُذْرِ واللِّمَمِ
وكان حالُهما فى الحكم واحدةً ... لو احْتكمنا من الدنيا إلى حكمِ

وكل شيء فى هـذا الوجود فى رحيل وسفر دائم ، فهذا الماء الذى هو روح كل حى لا يزال هو نفسه مسافراً بين السماء والأرض فى رحلة أزلية لا تنتهى :

ونتركُ الماءَ لا ينفَكّ من سَفَرٍ ... ما سارَ فى الغَيْم منه سارَ فى الأَدَمِ

ومن هنا يأخذ أبو الطيب فى الحديث عن رحيـله من مصر ، فقد وقى بهذه الرواحل وهذا الرحيل قلبه من الحزن وجسمه من المرض ، وها هو قد أسرع بتلك العيس من مصر وفى صحبته هؤلاء الغلمان الذين يتعاطف معهم هذا التعاطف الرقيق :

لا أبغض العيس لكنِّى وقيت بها ... قلبى منَ الحزْنِ أَوْ جسمى منَ السَّقَمِ
طُرِدْتُ من مِصْرَ أَيْدِيها بأَرْجُلها ... حتى مَرقن بنا من جوشَ والعلمِ
تبرى لهنّ نعـامُ الدوّ مسرجَـةً ... تعارض الجُدُل المرخاةِ باللُّجَمِ
فى غِلْمَةٍ أَخطروا أَرواحهم ورضوا ... بما لقين رضا الأَيسار بالزّلمِ
تَبْدُو لنـا كُلَّما أَلْقَوا عَمائمهم ... عمائمٌ خلقت سوداً بلا لُثُمِ
بِيض العوارِض طَعّانُونَ من لحقوا ... من الفَوارِسِ ، شـلاَّلُونَ للنّعَمِ
قد بلّغوا بقَنَاهُم فوق طاقتـه ... وليس يبلغُ ما فِيهم مِنَ الهمَمِ
فى الجاهليـة إلا أَن أَنفسهم ... من طِيبهنّ به فى الأَشهر الحُرُمِ

فى فارس :

برحلة أبى الطيب إلى فارس من العراق تكون قد انتهت مرحلة كفاحه السياسى والأدبى من أجل تغيير الواقع السياسى فى أيامه لصالح العرب ضد حكم « الأعاجم » ، وهذه المرحلة انتهت فعلا مع عودته من مصر . إن مضمون وعد كافور له — هذا الذى لم يتحقق — كان مضموناً سياسياً وعسكرياً داخلا فى نطاق محاولات الشاعر لتغيير هذا الواقع السياسى الذى كان يؤلمه أشد الألم ، ويتضح ذلك من طبيعة مطالبة أبى الطيب لكافور بتحقيق هذا الوعد ، وإشارته الصريحة فى أول قصيدة أنشدها إياه بتولى « العراقين » وكان ذلك يعنى فى هذه الأيام تهديداً استراتيجياً مباشراً لبغداد .

نعم . . برحلة أبى الطيب إلى فارس يكون التغيير قد حدث فى شخصيته وفكره هو ، وكل ما يذكره فى فارس للعرب أن العربى هناك غريب الوجه واليد واللسان ، لكنه فى مقابل ذلك يثنى على همة ناقته التى حملته إلى ابن العميد تاركة « دخان الرِّمث » فى أوطانها :

أَرَأَيْتَ هِمَّـــةَ ناقَتِى فى ناقَـــةٍ   نقلت يداً سرحاً وخفًّا مُجمرا[1]

تركَتْ دُخَان الرِّمْث فى أَوطانِها   طلباً لقَـــوْمٍ يُوقدونَ العَنْـــبرا

وهو يعلن « للأعراب » بصوت عال أنه جالس بعدها أعظم الرجال وأعلمهم ، وأنه ملّ نحر عشارها ، فاستضافه من ينحر البدر الذهبية لأضيافه :

من مبلغ الأَعرابِ أَنِّى بَعْـــدَها   جَالَسْـــت رسطاليس والإسكندرا

ومَلَلْتُ نَحْرَ عِشـــارها فأَضافَنى   مَنْ يَنْحَر الْبِدَر النِّضَار لمن قَرَى

ويبدو على أبى الطيب السرور البالغ فى هذه الفترة وفى هذه البلاد الجميلة :

نحنُ فى أَرْض فارس فى سُرور   ذا الصَّباح الذى يُرَى مِيلادُه[2]

---

(١) الديوان : ٥٤٠

(٢) الديوان : ٥٤٢

ولكن الرحيل هو حياة هذا الشاعر وهو قدره ؛ فقد ورد كتاب من عضد الدولة فناخسر يستزيره وكان ذلك فى عام ٣٥٤ ه ، وكان عليه أن يرحل ، وها هو ذا يقول فى وداعه لابن العميد :

وغيظٍ على الأَيام كالنَّار فى الحشا ولكنَّهُ غَيْظُ الأَسِير على الْقَدِّ[١]

فإِمَّا ترَيْنى لا أُقِيمُ ببلدةٍ فآفةُ غِمْدِى فى دلوقِ من حَدِّى

وها هى تلك الرواحل لا تزال تبدّل أيامه وعيشه ومنزله :

تبدّل أيّامى وعيشى ومنزلى

نجائبُ لا يُفَكِّرْنَ فى النَّحْس والسَّعْدِ

ويتوجه المتنبى لعضد الدولة ويمدحه ، ويرحل من شيراز فى شعبان سنة ٣٥٤ ه متجهاً إلى الكوفة ، فتعترض طريقه فوارس بين دير العاقول والصافية بالقرب من بغداد ، وكان أبو الطيب قد رفض أن يرسل معه عضد الدولة من يقوم بحراسته ، وبعد قتال دار بينه وبينهم تمكنوا من قتله هو وولده ومملوكه ، ويقال إن الذين خرجوا عليه هم من بنى كلاب مع ضبة ابن محمد العينى الذى كان المتنبى قد هجاه هجاء مقذعاً .

وهكذا تنتهى هذه الحياة التى كانت رحيلا دائماً لا يهدأ والتى كان فيها أكبر شعراء العربية ممثلا صادقاً لشعرها الذى كان كثير الرحيل فى جزيرته ، ومنها فى العصور الوسطى إلى بلاد الحضارة الوسيطة ، ومن هذه إلى العالم الجديد فى العصر الحديث .

---

(١) ديوان المتنبى : ٤٧٠

٢ ــ الرحيل الى الأماكن الاسلامية المقدسة

كانت الدولة العربية الإسلامية فى مجدها ، سواء أيام خضوعها لسلطة بغداد المركزية أو بعد ذلك لسلطة الحكام المستقلين بدولهم ، وفى هذه الأيام كان الشعراء يقصدون ويمدحون أصحاب السلطة والمال من الملوك والأمراء ، أما حين بلغ التفكك فى هذه الدولة مداه وخاصة فى القرن الخامس الهجرى وما بعده ، وانعدم الأمن أو كاد ، وساءت الأحوال الاقتصادية والمعيشية ، وتعرضت الدولة للغزوين الصليبى من الغرب ، والتترى من الشرق ، فقد أخذ الشعراء – وهم الممثلون لضمير الأمم ووجدانها – يقصدون ويمدحون المؤسس الأول للدولة . . محمــد عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا هو فن المديح النبوى فى العصور المتأخرة ، وهو فن قام على عقيدة مفادها أن الرسول حىّ فى قبره ، وهو يعلم كل صغيرة وكبيرة عن أمته .. ويهمنا هنا أن هذا الفن قد شكلت فيه الرحلة إلى الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة العنصر الرئيسى الأول[١] .

والحق أن وصف الرحلة إلى الأماكن المقدسة كان أقصى ما استمتعت به فى دراستى لفن المديح النبوى ، ففى هذا الشعر الكثير من حرارة الصدق وجمال الفن ، وأنا أحب هنا أن نلقى نظرة شاملة تؤيد الفكرة الأساسية فى بحثنا هذا من أن الرحيل الدائم هو حياة الشعر العربى والشعراء العرب فى مختلف العصور وعلى امتداد تاريخه الطويل .

لقد بلغ فن المديح النبوى ذروة ازدهاره فى القرن السابع الهجرى ، وفيما بعده بقليل ، فكانت مصر والعراق والشام أهم مراكزه . كان البوصيرى فى مصر ، ويحيى الصرصرى فى العراق ، والشهاب محمود الحلبى فى الشام ، وهؤلاء الشعراء وصفوا منازل الرحلة من ديارهم إلى الحجاز . فعل ذلك

---

(١) صلاح عيد : مديح الرسول بعد حياته : ١٧

الصرصرى والبوصيرى ، وتحدثوا عن شدة حنين الراحلين إلى حمى الرسول عليه السلام ، بل عن ذلك الشوق والهوى لمحبوبهم ، هذا الهوى الذى جعلهم يستعذبون ما كان يحيق بالرحلة إلى الأماكن المقدسة فى تلك العصور من مخاطر وأهوال بالإضافة إلى مشقة الطريق ، وهم على ظهور رواحلهم التى أضناها طول السير والسرى ، وقد امتاز الشهاب محمود الحلبى بوصفه الرائع لمظاهر الطبيعة فى تلك الرحلة المقدسة .

لقد فرض الله الحج على المسلم مرة واحدة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلا ، ولكن هؤلاء الشعراء يتمنون أن يقوموا بهذه الرحلة مرة كل عام حتى يتمتعوا بزيارة الرسول عليه السلام فيما يقول الشهاب محمود الحلبى :

حِمًى حـــلّ فيـــه نبىّ الْهُـــدَى فأَضْحَى به أشرفُ الْخَلْق جارًا[1]
فيافَـــوْزَ مَنْ كلّ عـــامٍ أَتـــاهُ ويافَوْتَ مَنْ غاب عنه خَسَارًا

ويقول الصرصرى :

يا مَـــنْ بـــودِّى أَزُور مربعـــه فى كلِّ عامٍ ، وذاك يُغْتَنِم

بل إن الزمخشرى يصمم على ألا يعود مع العائدين من مكة بعد تأدية مناسك الحج ، إنه سيقيم هناك حتى يوافيه الأجل ، وسوف يحل ضيفاً على بيت الله الحرام حتى يحشر من هناك فى يوم الحشر العظيم :

سأَرُوح بين وُفودِ مـــكة وَافِداً حتى إذا صَدَروا فلست بصادِرُ
بفنـــاءِ بيت اللهِ أَضرب قُبّـــتى حتى يحلّ بى الضَّرِيح القابرُ
أُلْقِى الْعَصَا بين الحَطِيم وزمزمٍ لا يطّبينى إخـــوةٌ وعشـــائرُ
ضيفاً لمولى لا يخـــلّ بضيفـــه ويُرِيـــه أعظم ما تمنّى الزّائرُ
حَسْبِى جوار الله ، حَسْبِى وحده عن كل مَفْخَرة يعد الفاخِرُ
ســـأُقِيم ثمّ وثمّ تُدفَن أعظمى ولَسَوْف يبعثنى هُنَاك الحاشِرُ

---

(١) المجموعة النبهانية : ١٤٣/٢

أما الرحلة ذاتها فقد وصف بعضهم مراحلها ومنازلها من حيث تبدأ إلى حيث تنتهى . فعل هذا البوصيرى محدداً منازل الرحلة من مصر إلى الحجاز . وفعله الصرصرى محدداً هـذه المنازل من العراق إلى الحجاز ، ولم يكن ذلك مجرد سرد خال من الروح ، فأنت تحس فى ذكرهم لهذه المراحل تلك العاطفة الدينية المشبوبة وذلك الحنين إلى زيارة الحبيب ، وخاصة عند أولئك الذين كانوا يحرمون هذه الزيارة بسبب سوء حال الأمن فى تلك العصور . وها هو الصرصرى يصف مراحل الرحلة ابتداء من بلدته صرصر :

شارفت « صرصر » العشاءَ وأَضحت ... بزويران فى البرى راقصاتِ[1]

ورماهـا السّرى بحصن بشير ... ساميات الأعنـاقِ مستبشراتِ

وطَـوَتْ بالمسير بابـل طَيًّا ... ورَمَتْ خلف ظَهْرِها بالفُرَاتِ

وَقَفَـتْ باقِىَ المـآثِر بالـكُو ... فة واستقبَلَتْ عراص الفَلَاةِ

بعـد أَنْ ودّعـوا الإمام عَلِيًّـا ... جامعَ الفَضْل حائزَ المنقبـاتِ

باب عِلْم الرسُول شمس القضايا ... والشُّجَاع الـكَمىّ فى الغَزَوَاتِ

ثم مَـرَّتْ بالقـادِسيَّةَ واجْتَـا ... زَتْ بخفّان ترتمى سـائراتِ

ورَمَاهَـا بجنـدل السّلْمان الـ ... سير عنقاً فجزن مُسْتَسْلِماتِ

ولهم فى وصف الراحلين والرواحل ذلك الشعر الكثير الرقيق المؤثر بصدقه وجماله الفنى فى النفس أعمق تأثير . هؤلاء الراحلون يعانون فى رحلتهم ألواناً من المشاق فى هـذه الصحراوات القاحلة ، ويتعرضون لألوان من الأخطار والأهوال فى تلك العصور التى تدهور فيها حال الأمن بصورة رهيبة ، لكن حبهم الطاغى للرسول عليه السلام ودياره وحماه يطغى على كل ذلك ، فهم يستعذبون العذاب ، ويستمرئون المشقة فى هذا الرحيل المقدس ، يقول يحى الصرصرى :

وعليها شعث النواصى تواصوا ... فى سبيل الهَوَى بحُسْنِ الثباتِ

---

(١) المجموعة النبهانية : ١/٤٩٥

وتساقوا مـــن الغَـــرَام كُؤوســـاً　　أَصْبحـــت فى رِحـــالهم دَائِراتِ
جعَـــلُوا فى هَـــوَاهُم الصَّبْر دِرعاً　　وانتضوا فيـــه صـــارِم العَزَمَاتِ
واصـــلوا شـــدة السّرى وتجافوا　　عن لَذِيذِ الرُّقاد والشَّهَـــواتِ
عرضُـــوا للرَّدَى النُّفُوس وحامُوا　　عن ظباءِ الْحِمَى بحـــدّ الظباتِ
لا يُبـــالُونَ بالخُطُوبِ ويلقَـــوْ　　ن المنـــايا كالأُسْدِ فى الغاباتِ

ولنقرأ هذين البيتين اللذين تنساب كلماتهما كما ينساب ضوء الفجر فى ظلمة الليل ، وهما لنفس الشاعر :

تجافُوا ظِلالَ الرِّيف واعتَسَفُوا الفَلَا
فليس لهم إلاَّ القفـــارِ مَقِيـــلُ(١)
أَنيسهم ذِكراكَ فى كل مُـــوحش
ونُوركَ إنْ حَـــارَ الدَّليـــلُ دَلِيـــلُ

إن الهوى الكبير والأمل فى فرحة اللقاء ليغلبان كل إحساس بالخوف فى أثناء قطع هؤلاء الراحلين إلى ديار الرسول عليه السلام لهذه القفار المخوفة الموحشة :

قطعْنَا إليها الْبيدَ لَيْسَ يروّعنـــا　　سُهول الفَيَافِى دُونَهَا ووُعُورها(٢)
نَبيتُ على ذُعْر الفَـــلَاةِ وكُلُّنَا　　لأَجل اللّقا هادِى الجُفُونِ قَرِيرها
وهلْ ترهَبُ الأَخطارُ نفسٌ مَشُوقَةٌ　　تَبِيتُ ولَيْلَى بالْحِمَى تَسْتزِيرها؟

لقد بلغ الحب إذن مبلغ الغرام الذى يهون معه كل صعب ، ويتلاشى فى سبيله كل رعب .

إننى أستعيد الآن فى هذا البحث ذكرى تلك الدراسة الممتعة لتصوير

---

(١) المجموعة النبهانية : ٣/٢٦٥
(٢) نفس المرجع : ٢/١٧٧

شعراء المديح النبوى لرحيلهم إلى أرض الرسول ، ولقد اخترت أجمل ما فى هذه الأشعار ، ولعلى الآن وفى هذه العجالة أحاول أن أختار أجمل ما فى الأجمل . وهل يمكننى أن أمرّ بهذه الأشعار الجميلة دون أن أثبت هنا هذه الأبيات للشهاب محمود :

نَميلُ من الشَّوْقِ فوق الرِّحالِ ... كأَنَّا سُـكَارَى ولَسْنَـا سُكَارَى
تَجافى عن الطَّيْـفِ أجفانُنـا ... فلا نطعم النَّوْم إلاَّ غِـرَارَا
ونَسْرِى مـع الشَّوْق أنَّى سَرَى ... ونتبع حادِى السّرَى حيثُ سَارَا
ونَسْـأَلُ والدَّارُ تَدْنُو لنـا ... عن القُرْبِ فى كل يَوْمٍ مِرَارَا
وما ذَاكَ أَنَّا سَـئِمْنَا السّـرَى ... ولكن دَنَوْنَا فَزِدْنَا انْتِـظَارَا

وكلما أبصر الراحلون لمعة برق ظنوه نور المدينـة المنورة ، فتزداد لديهم تلك الحالة النفسية المتوترة التى تصاحب اقتراب الآمل من بلوغ أمله :

إذا الـبرقُ عارضَنَـا مُـوهِناً ... حَسِبْنَا سَنَا طِيبة قـد أَنَارَا
فنفـرى بأَذْرُع تلك النِّيـاقِ ... أَدِيمُ الفَـلَا غَـدْوَةً وابْتِكَارَا

وهذه النياق التى تقرب ما بينهم وبين محبوبهم ربطت بينها وبينهم تلك العاطفة التى تربط بين « رفقاء » الرحلة ، وها هم يخاطبونها هذا الخطاب الرقيق الجميل المؤثر على لسان الشهاب محمود :

لا تَسْأَمِى يانَاق طُولَ السّـرَى ... فقد بَدَتْ أعلامُ وادِى القُرَى[1]
ولا تَمَلّى قَطْـع عَرْض الفَـلَا ... وشِـدَّةِ السَّيْر وجَـذْبِ البُرى
فقد عرضت الرُّوح فى حُبِّ من ... سَرَتْ إليـه والحبيب اشْتَرَى
غـداً ترينَ الدار مأْهُـولَةً ... وحسن من تَهْوِينَ قـد أَسْفَرَا
فأَسرى هَـوَاك الله فى ذا الدُّجى ... بنـوره يلقى الدُّجى مُقْمِرَا

---

(١) المجموعة النبهانية : ٢/١٧٠

بُشْرَاكِ هَــذِى الدَّار قد أشرقت ... وهــــذه أنوارُ خير الْــوَرَى

قصَــدْتُ مَنْ عَمَّ الوَرَى جُودَهُ ... فاستبشِرى منـــه بحُسْن القرَى

سِيرِى عـــلى اسْمِ اللهِ واسْمِ الذى ... عـــلامةُ الإيمــانِ أنْ يذكرَا

وواصِـــلى الأَدْمُـــع فى حُبِّـــــه ... فنى سَبِيل اللهِ ما قَــدْ جَرَى

أرأينا إلى هذا التعاطف مع هذه الكائنات الحية التى تحمل زوارالرسول إلى حماه والتى يحسون أنها تشاركهم مشاعرهم وحنينهم إلى الرسول ؟

لكننا مع ذلك لم نر حتى الآن أجمل صور وصفهم للرحلة إلى أرض الرسول ، ولقد تفرد (الشهاب محمود) بقدرة رائعة على وصف الطبيعة أثناء الرحلة إلى الديار المقدسة ، وهو يصف هنا لحظة طلوع الفجر على الراحلين وقد وصلوا إلى حمى محبوبهم ، فانظر كيف يرسم هذا الشاعر الفنان اللوحة المعبرة عن عن هذه اللحظة :

وتراءى سَنَا الْعَقِيق مـــع الفَجْـ ... ـر فشكوا أذَاكَ أم ذا أنَارَا[1]

فلَقد أدركُوا صباحاً يَوَدُّ الْـــ ... مَرْءُ أن لو شرى به الأَعمارَا

حيثُ تَبْدُو تلك القِبَاب ويستجـ ... ـلى الْوَرَى من خِلالها الأَنوارَا

فتباروا والشَّوْق يَدْعُـــوهُم نَحْـــــــو ... حِمَى المصْطَفى البدار البدارَا

وأتوهُ والوَجْدُ قــد أسكَتْ الأَلْـ ... ـسُن واستَنْطَق الدموع الْغِزَارَا

ويحين وقت العودة ويكون ألم الفراق بقدر فرحة اللقاء فى هذا الموقف الذى يصوره (الشهاب محمود) :

ما قَضَيْنَا حَقَّ السَّلَام إلى أن ... رَاعَنَا بالـــودَاع حـــادٍ عَجُولُ

يا لَهَـــا حَسْرَةٌ لإنســـان عَيْنى ... من لَظَاهَـــا فى الدَّمع سَبْحٌ طويلُ

---

(١) المجموعة النبهانية : ١٤٧/٢

غيّضت دَمْعَنَــا الدِّيار وأَضْحَى   ولَهُ بالمسِير عَنْهــا مَسِيــلُ

يا رسولَ الإلَــهِ هــذَا وَدَاعٌ   لِوَدَاع الحيــاةِ عِنْــدِى عَدِيلُ

ويجب أن نشير هنا إلى أن البلاد التى عانى حجاجها أكثر من متاعب وأهوال الرحلة إلى الأماكن المقدســة فى تلك العصور كان شعراء المديح النبوى فيها أكثر حرارة وأعمق تأثيراً فى تصوير تلك الرحلة ، وكان الحجاج من العراق والشام أكثر معاناة فيها . والنماذج السابقة توضح هذه الحقيقة ، ولعلها نفس الحقيقة التى جرّدت وصف البوصيرى للرحلة من ذلك التوهج الفنى عند زميليه المعاصرين له : الصرصرى والبوصيرى . فالتاريخ يخبرنا أن الحجاج من مصر لم يعانوا ما عاناه إخوانهم فى هذه الرحلة لما كان لمصر من قوة ومكانة فى هذه الفترة .

(ب) فى العصر الحديث

ونأتى إلى العصر الحديث لنرى الرحيل لا يزال مؤثراً على حياة أقطاب الشعر العربى وإنتاجهم ، ولنرى رائد الشعر الحديث وباعث نهضته محمود سامى البارودى ، و قد ترك الرحيل أثره العميق على حياته وفنه . ألم ينف عن وطنه إلى سيلان سبعة عشر عاماً . ألم تسجل روائعه الناس والبلاد والمعارك التى خاضها فى جزيرة كريت . وفى الحرب بين تركيا وروسيا ؟ ثم لنرى شوقى — أنضج ثمرة فى شجرة الشعر العربى الحديث — وقد نفى عن بلاده أيضاً إلى الأندلس عدة أعوام ، ولنجد عنده ذلك الجانب الهام الذى يختص بالرحيل لأول مرة فى تاريخ الشعر العربى . وهو إدراكه الواضح العميق لأثر الرحيل فى مدّ الفن الشعرى بالثراء والحيوية والجمال . فهو يقصد قصداً إلى الرحيل ويسعى سعياً له من أجل بنات شعره التى يقول لها :

لأَجْلِكَ سِـــرْت فى بَرٍّ وبَحْر وأَنْتَ الدَّهر أَنْتَ بكلِّ قُطْرِ
حَنَنْتُ إلى الطبيعة دونَ مِصْـــر وقُلْتُ لَدَى الطبيعة : أَيْنَ مِصر؟

وفى مقدمته النثرية لقصيدته « روما » نرى هذا القصد من الرحيل واضحاً ، فهو يفتح بالسفر ذلك السفر الضخم من كتاب الناس والطبيعة والآثار التاريخية ، ويعيش فيه الجمال الطبيعى والعمق التاريخى . ويقول فى رســـالة لصديقه المؤرخ الأستاذ إسماعيل بك رأفت : فوقفت أتأمل ذا الجدار وذا الجـدار ، وأنشد ذلك القصر وتلك الدار ، إلى أن ثار الشعر — والشعر ابن أبوين : التاريخ والطبيعة . والمتنبى الذى قال : الشعر على قدر البقاع قد قرّر قاعدة . وهو قرّرها فى أواخر أيامه بعد أن لمس تحققها فى شعره ، مع أنه لم يتأثر فى شعره بما فى تلك البقاع ، وإنما بمن فيها كما رأينا ، وإشاراته نادرة إلى آثار مصر وطبيعة فارس ، لأنه كان مشغولا بما هو أهم فى نظره ، وما أحسب إلا أن شوقى وعى أعماق قولة المتنبى الصادقة . وطبقها وأفاد منها إلى أقصى حدّ فى رحلاته الكثيرة المتتابعة .

وحتى نفى شوقى إلى الأندلس يأتى إضافة إلى تأثير الرحيل فى شعره ، وها هو ذا ينفى إلى تلك البلاد التى يلتقى فيها بأبوى الشعر : الطبيعة والتاريخ ، ولعله — كما يقال — هو الذى اختاره منفاه ، فكان اختياره ذكياً موفقاً ، ولكن النفى غير السفر الذى قصد به إثراء فنه وجماله ، فلم تسمح له حالته النفسية فى سنوات النفى أن يبدع الإبداع المأمول . كيف والنفى حال من عذاب جهنم كما يقول ؟ وهو فى منفاه لم يصف الأندلس بقدر ما وصف مصر التى كان حنينه إليهـــا غالباً على كل شيء ، لكن النفى كان له ذلك الأثر الأكبر والأعمق والأبعد فى حياة شوقى وشعره ، فقد جعله ينقل اهتماماته من الحاكم إلى الشعب بعد أن أدرك خطر السياسة ولسعت نارها يده ، وها هو ذا فى أول قصيدة له بعد المنفى يشارك الناس مشاركة وجدانية صادقة فيما يقاسونه من ارتفاع الأسعار ، ويحمل على أولئك التجار الذين يزيدون متاعب الناس بقسوة قلوبهم . أرأيت كيف أن هذا « السفر الاضطرارى » قد ترك فى شعر شوقى ما هو أهم وأبعد بكثير من مجرد إثراء قصائده بالمشاهد الطبيعية والمعالم التاريخية ؟ لكأنما قدّر للرحيل أن يحدث أقوى الآثار فى الشعر العربى وفى أقطابه بوجه خاص .

والآن لنصحب البارودى ، وشوقى ، وعلى محمود طه ، فى رحلاتهم التى أثرت فى فنهم تأثيراً عميقاً .

محمود سامى البارودى :

ينقسم الرحيل فى حياة البارودى إلى قسمين : أولهما سعد به حين مضى مشبعاً ما فى نفسه من نزعة حربية متأصلة بحكم أصله الجركسى وانتمائه إلى المماليك ، فقد اشترك فى إخماد الثورة التى نشبت ضد العثمانيين فى جزيرة كريت ، وكذلك فى حروبهم مع الروس فى البلقان ، وعاد إلى مصر يحمل الأوسمة الرفيعة التى قلدها إياه السلطان ، ويتقلد المناصب العالية فى القصر الخديوى وفى الحكومة .

أما القسم الثانى فشقى به كل الشقاء ، حين مضى إلى منفاه فى سرنديب ليقضى به نيفاً وسبعة عشر عاماً ، وهناك أمضّه الحنين إلى وطنه وأهله ، وتدهورت صحته واعتل بصره وسمعه ، فعاد إلى مصر عام ١٩٠٠ .

وفى نفس البارودى فى المرحلة الأولى من حياته يجتمع ما يجتمع فى نفس الفارس دائماً من نزعة الحرب وعاطفة الحب ، أو ذلك المدخل إلى نهاية الحياة ، إلى ذلك المنبع لتجدد الحياة ، وفى القصيدة الواحدة يتجاور الاثنان : تدفعه حماسته فيفرح برحيله إلى ساحات القتال فى كريت والبلقان ، ولكن فى غمرة الحرب يذكر غرامه وطيب أيامه ، فيحنّ إلى مصر حنيناً رقيقاً مؤثراً .

وهيا بنا نصحب البارودى الفارس المحارب فى البلقان ، وأنا أختار هذه الأبيات الفريدة التى يصور فيها موقفاً رائعاً ومؤثراً من مواقف الحرب هو بكاء صديقه الذى خامره إحساس بأن فارسنا سيقضى نحبه فى تلك المعركة ، ولكن الشاعر الفارس يدعوه إلى الثبات ورباطه الجأش . فالصيال سيبدأ بعد قليل وعليه ألا يكون لنفسه حرباً قبل الحرب أو مع الحرب :

مَدَافِعُنَا تَصُبّ الْعِـدَا ومُشَاتنـا　　قيامٌ تليها الصَّافِنَات القَوارحُ

فلسْتُ تَرَى إلاَّ كُمَاةً بَوَاسِـلاً　　وجُرْداً تخوضُ الحربَ وهي ضَوابحُ

تُغِيرُ على الأبطالِ والصُّبْحُ باسِمٌ　　وتأوِى إلى الأدغال والليلُ جَانحُ

بَكَى صاحِبِى لما رأى الحربَ أَقْبَلَتْ　　بأبنائِها ، واليَوْمُ أغْبر كَالِحُ

ولم يَكُ مَبْكَاهُ لخـوْفٍ وإنمـا　　توهَّمَ أنِّى فى الكَرِيهةِ طَائِحُ

فقلتُ اتَّئِد قبلَ الصّيال ولا تكُنْ　　لنفسِكَ حَرْباً ، إنَّنِى لَكَ ناصِحُ !

فلم أجد موقفاً يصور قسوة الحرب أشد من هذا الموقف تعكسه هذه الخلجة من خلجات النفس الإنسانية فى موقف الهول ، ولكن شاعرنا الذى يدعو صاحبه إلى رباطة الجأش يفيض رقة وحنيناً وهو يتذكر روضة المقياس بمصر موطن نعيمه وهواه ، ويدعو لها هذا الدعاء الذى ينزلق إلى قلمه بتأثير قراءته للشعر القديم :

فيا روضة المقياس حَيَّاكِ عارِضٌ　　من المزْن خَفَّاق الجناحَيْن دَالِحُ

ضَحُوك ثَنَايَا البرقِ تَجْرِى عُيونه　　بوَدْقٍ به تَحْيَا الرُّبَا والصَّحاصِحُ

وهو أيضاً فى كريت يذكر مصر ويحن إليها أثناء اشتراكه فى إخماد الثورة التى شبت فى هذه الجزيرة ضد العثمانيين :

سَرَى البرقُ مِصْرِيًّا فأَرَّقَنِي وحْدى   وأذْكرنى ما لستُ أنْسَاهُ من عَهْدِ

وهو يذكر فى هذه الجزيرة أيضاً بعد وصفه معركة حربية عنيفة حنينه إلى مصر متضمناً فى حنين جياده إليها :

فزعت فرجّعت الحَنِين وإنما   تَحْنَانِها شجنٌ من الأَشجانِ

ذكَرَتْ مواردَها بمصر وأين من   ماءٍ بمصر منازلَ الرُّومانِ ؟

وعلى هذا النحو يجمع البارودى فى هذا الشق الأول من حياته قبل مرحلة النفى بين قسوة الحرب ورقة الحب ، فهواه واهتمامه موزّعان بينهما توزعاً يصوره فى شعره أدق تصوير ، وهو يصف قسوة المعارك الحربية فى البلقان بقوله :

إذا نحنُ سِرْنا صَرّحَ الشَّرُّ باسْمِهِ   وصاحَ القَنَا بالموْتِ واستَقْتَلَ الْجُنْدُ

فأَنْتَ تَرَى بين الفَرِيقَيْن كَبَّةً   يحدّث فيها نفسه البطَلُ الْجَعْدُ

وفى نفس الوقت تغلبه رقة الحنين إلى وطنه وهواه فيهتف :

هُوَ البَيْن حتى لا سَلامٌ ولا ردّ   ولا نَظْرَةٌ يقْضِي بها حَقَّهُ الوَجْدُ

ولننتقل الآن إلى الشق الثانى من حياة البارودى الذى استغرق معظمه رحيل بائس بل مأساوى إلى المنفى ، ففى المرحلة الأولى من حياته كان الفارس الشاعر يرحل من مصر بطلا ويعود بطلا يحتسى من نبع النعيم فى الحياة والحب ما يشاء ، أما الآن وقد تحطمت آماله الحربية والسياسية بعد إخفاق الثورة العرابية وصودرت أملاكه ، فها هو ذا يكره على الرحيل عن وطنه وأهله وأحبائه إلى سرنديب حيث سيقضى هذا الشطر الطويل من العمر ، وها هو ذا يعزف لحن الوداع الحزين المؤثر على أوتار الشعر وهو يغادر الوطن :

ولمـا وَقَفْنَـا للوَدَاعِ وأُسْبلَـتْ | مدامِعَنا فوق الترائِبِ كالمزْنِ
أَهَبْتُ بصَبْرِى أن يَعُودَ فعزّنى | ونادَيْتُ حِلْمِى أن يَثُوبَ فَلَمْ يُغْنِ
وما هِىَ إلاَّ خطـوة ثم أقلعَتْ | بنا عن شطوط الحىّ أجنحة السفن
فكَمْ مُهجة من زفرة الوجد فى لَظًى | وكَم مُقْلَةٍ من غَزْرَةِ الدَّمع فى دَجْن
وما كُنْت جرّبت النوى قبل هذه | فلما دهَتْنى كِدْتُ أَقْضِى من الْحُزْنِ
ولكننى راجعت حِلْمِى وردّنى | إلى الْحَزْم رأْىٌ لا يَحُوم على أَفْن
ولولَا بُنَيَّـات وشـيبٌ عواطلٌ | لما قرعت نفسى على فائتٍ سنّى

وها هو فى هذه البلاد النائية يعانى آلام الغربة وحيداً :

أبيت فى غربةٍ لا النفس راضية | بها ولا الملتقَى من شِيعَتى كثبُ[1]
فلا رفيقٌ تسـرّ النفس طلْعَتـه | ولا صديقٌ يَرَى ما بِى فيكتئِبُ
ومن عجائب ما لاقيْتُ من زَمَنِى | أنى مُنيت بخَطْبٍ أَمْرُهُ عَجَبُ
لم أَقترف زِلةً تقْضِى علىّ بمـا | أَصبحتُ فيه فماذا الوَيْلُ والحربُ؟
فهَل دِفَاعِىَ عن دِينى وعن وطَنى | ذَنْبٌ أُدَانَ بِه ظُلْماً وأَغْتربُ
فلا يظُنّ بِى الْحُسَّـادُ مندمـةً | فإننى صابِرٌ فى اللهِ مُحْتَسِبُ

وشاعرنا لا يزال الأمل يداعب نفسه برغم ما هو فيه :

فإنْ يكُنْ ساءَنِى دَهْرِى وغَادَرَنى | فى غُرْبَةٍ ليس لى فيها أَخٌ حَدِبُ
فسوف تَصْفُو اللَّيالى بعد كُدْرَتِها | وكلّ دورٍ إذا ما تَمَّ يَنْقَلِبُ

ولست أريد أن نترك هذه القصيدة دون أن نقف عند هذه الأبيات التى يحس فيها الشاعر مشكلة الإنسان الأزلية مع القدر ، ففى اللحظات

---

(١) ديوان البارودى : ٥٠/١

العصبية من الشك والحيرة يقدم الإنسان على عمل ما ثم يتبين له خطؤه ، وهنا يفعل ما يفعله شاعرنا تماماً فى محنته ، إنه يلوم هـذا العقل الذى لم يكن له نوراً يهديه إلى الطريق السديد ، لكنه لا يلبث أن يلتمس العذر لنفسه ، إنه لا يعـلم الغيب ، ولو عـلم الإنسان الغيب لسهل عليه سلوك الطريق الذى لا تسوؤه عاقبته ، ولكن الإنسان ضعيف على أى حال ، فهـو عرضة لتلك السهام الخفية التى يطلقها عليه القدر فلا يملك لها رداً :

لَوْ كانَ للمرْءِ عقلٌ يستضِيءُ به ... فى ظُلْمَةِ الشَّكِّ لم تعلق بِه النُّوَبُ

ولو تَبَيَّنَ ما فى الغَيْب من حَدَثٍ ... لكانَ يعلَمُ ما يـأْتِى ويجتَنِبُ

لكنَّـهُ غَرَضٌ للدهْرِ يرشُقُـه ... بـأَسْهُمٍ مَا لَهَا رِيشٌ ولا عقبُ

وتمر الأيام والسنوات ويبلغ شاعرنا وهو فى منفاه رحيل أحبابه عن عن الدنيا واحداً بعد الآخر .. ويدب اليأس إلى نفسه رويداً رويداً ، فإذا هو يتساءل عن أيام شبابه ولذته ، وإذا هو يستبعد عودته إلى حياته الأولى ، ويطلق هذه الزفرة من الحنين والأنين إلى روضة المنيل مسرح هواه ومراح صباه فى قوله :

أَيْنَ أيام لَـذَّتى وشَـبَابِى ... أَتراهـا تعُـودُ بعـدَ الذَّهَابِ

ذاكَ عهـدٌ مَضَى وأَبْعَـدُ شىءٍ ... أنْ يردّ الزمان عَهْدَ التَّصَابِى

وفى قوله :

لَيْتَ شِعْرِى مَتَى أَرَى رَوْضَةَ المنْـيَل ذَاتَ النَّخِيـل والأَعْنَـابِ

حيثُ تجْرِى السَّفين مُسْتَبِقاتٍ ... فَوْقَ نَهْرٍ من اللُّجَيْن المذَابِ

ويكثر البارودى فى سنوات منفاه الطويلة من مثل هذه الشكوى الموجعة من الوحدة فى الغربة ، ومن هذا الحنين الموجع إلى تلك البقعة الحبيبة إلى قلبه من روضة النيل :

حُزْنى بَرَانِى وأَشْواق رَعَتْ كَبِدِى ... يا وَيْحَ نَفْسِيَ من حُزْنى وأَشْوَاقِى

أُكَلِّف النفس صبراً وهى جازِعَةٌ — والصَّبر فى الحبّ أَعْيَا كلّ مُشْتَاقِ

لا فى « سرنديب » لى خِلّ أَلُوذُ بِهِ — ولا أَنِيسٌ سِوَى هَمِّى وإِطْرَاقِى

أَبِيتُ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْل مرتفقاً — فى قنَّةٍ عزّ مرقاها على الرَّاقى

يا « رَوْضة النِّيل » لا مَسَّتْك بائقةٌ — ولا عَدَتْكِ سماءٌ ذَات إِغْرَاقِ

ولا برحت من الأَوراقِ فى حُلَلٍ — من سُنْدُسٍ عبقرىّ الوَشْى بَرّاقِ

يا حَبّذا نَسَمٌ من جَوّها عَبِقٌ — يَسْرِى على جَدْوَل بالماء دَفَّاقِ

بل حبَّذَا دَوْحَةٌ يَدْعُو الهديل بها — عِنْدَ الصَّباح قمارىٌّ بأَطواقِ

مَرْعَى جيادِى ، ومأْوَى جيرتى وحِمَى — قَوْمى ، ومنبت آدابى وأَعــراقى

أَصْبُو إِلَيْهَا على بُعْــدٍ ويُعْجبنى — أَنِّى أَعِيشُ بها فى ثَوْبِ إِملاقِ

أرأيت أشد إيلاماً للنفس من هذا التعبير العميق الحار الصادق عن شدة الحنين إلى الأهل والأحباب والديار ؟

ويستمر شاعرنا المعذّب فى منفاه يغمس ريشته فى نزف روحه وفؤاده ليكتب هذه الأبيات :

فيا بَرِيدَ الصَّبَا بَلِّغْ ذَوِى رَحِمِى — أَنِّى مُقِيمٌ على عَهْدِى ومِيثاقِى

وإنْ مَرَرْت على « المقْياس » فَاهْدِ لَه — مِنِّى تحيةَ نَفْس ذاتَ أَعَلاقِ

وأَنْتَ يا طائراً يَبْكِى على فَنَنٍ — نَفْسِى فِدَاؤُك من ساقٍ على ساقِ

أَذكرتَنى ما مَضَى والشَّمْل مُجْتمعٌ — بمصر والحرب لم تَنْهَضْ على سَاقِ

أَيَّامَ أَسْحَبُ أَذْيال الصِّبا مَرِحاً — فى فِتْيَةٍ لِطَرِيق الخير سُبَّاقِ

فَيَالَهَا ذِكرةٌ شَبَّ الغــرام بهـــا — ناراً سَرَتْ بين أَرْدَانى وأَطْوَاقى

عَصْرٌ تولَّى وأَبْقَى فى الفُؤَاد هَوى — يكادُ يشملُ أَحْشَائى بإِحراقِ

ويخبو نور الأمل أو يكاد فى نفس شاعرنا ، فيلجأ إلى رحاب الله زاهداً فى الحياة الدنيا ، وموطناً النفس على الحقيقة الأزلية فى هذه الحياة :

كُلُّ حَـيٍّ سَيَمُـوت ... لَيْسَ فى الدُّنيـا ثبوتُ
حـركاتٌ سَـوْفَ تفنى ... ثم يتْلُـوهَا خُفُـوتُ
أين أمْـلاكٌ لهم فى ... كل أفـقٍ مَلَكُوتُ
زَالَتِ التِّيجَـانِ عنهم ... وخَلَتْ تلك التُّخُـوتُ
إنمـا الدنْيَا خَيَـالٌ ... باطِلٌ سَـوْفَ يَفُوتُ
لَيْسَ للإنسـانِ فيهـا ... غَير تَقْـوَى الله قُوتُ

كانت مشاعر الألم والأسى والحنين إلى الديار والأحباب تحرق شاعرنا ، وتتدهور صحة الشاعر الفارس ويضعف سمعه وبصره ، ويكون ذلك شفيعاً له ليعود إلى حبيبته مصر وإلى بقية أحبابه فيها ، وهو يقبل على مصر بعد هذا الغياب الطويل هاتفاً هذا الهتاف الشجى :

أبابل رأى العَيْنَ أمْ هذه مِصْرَ ؟ ... فإنى أرَى فيها عُيوناً هى السِّحْرُ

وهكذا يكتب لباعث الشعر العربى فى العصر الحديث أن يقضى هذا الشطر الكبير من حياته فى الرحيل الذى يترك على شعره فى أيام سعادته وأيام بؤسه هذه البصمات القوية البارزة ، بل يكتب له أن يضع مختاراته الشهيرة فى المنفى أيضاً !

أحمـد شوقى :

أثمرت رحلات شوقى إلى الشام وتركيا وأوربا عدداً غير قليل من القصائد التى تحتل مكانة عليا من شعره من حيث القيمة الفنية ، وهى كذلك تحتل مكانة عليا من فن الشعر العربى من حيث إن باعثها هو إرضاء الفن الخالص ، وهو دافع يكاد يكون نادراً فى تاريخ الشعر العربى . فالرحلة فى الجاهلية كانت ضرورة حياة ، ورحلات الشعراء فى العصور الوسطى كانت ضرورة اقتصادية فى أغلبها ، واقتصادية وسياسية عند المتنبى ، أما الآن فنحن أمام رحيل باعثه الفن الخالص ، وهذا شىء عظيم القيمة إلى أقصى حد فى تاريخ الشعر العربى !

والحق أن الشعر العربى حين يفرغ إلى حقيقة الشعر باعتباره عودة إلى الأصل التصويرى والنغمى للغة وللتعبير البشرى بوجه عام . يرتفع هذا الشعر حينئذ إلى ذرى فنية لا يرقى إليها شعر آخر ، ولم لا وهو يمتلك أدق وأغزر نغم شعرى فى العالم .. هذا النغم الذى سمح ويسمح بالتعبير عن أدق الأفكار وأرق المشاعر .

فلنطف بنواح من تلك الحدائق الغناء من فن شوقى ، تلك التى أبدعتها رحلاته إلى الشام وتركيا وبلاد أوربا .

فى السفينة :

كان شوقى — رحمه الله — موفقاً كل التوفيق فى اختياره للبحر طريقاً لرحلاته المختلفة ، ففى السفينة يبدأ المسافر حقاً فى التمتع بمشاهد الطبيعة . ولشوقى ثلاث قصائد رئيسية فى الرحلة البحرية وصف فى إحداها مسير الفلك إلى الدردنيل والبسفور ، وفى الثانية منظر شروق وغروب الشمس ، وفى الثالثة منظر طلوع البدر كما يظهران للرائى من أعلى السفينة .

وقصيدة « البسفور كأنك تراه »[1] من أنفس قصائد الشعر العربى . وهل لدينا فى تاريخ هذا الشعر مثيل لوصف الرحلة البحرية بمثل هذا الجمال وهذه الفتنة التى نراها فى هذه الرباعيات البديعة ؟ بل لا أرانى مبالغاً إذا زعمت أنه لا يوجد فيما نعرف من روائع شعر الوصف العالمى ما يدانيها فى الروعة والجمال وخاصة عندما يقترب الفلك من البسفور ، وتنساب على قلم الشاعر أبيات هى السحر الحلال ، وهى آية الجمال .

والقصيدة مبنية على الانتقال التدريجى فى الزمان والمكان ، فهى تبدأ مع مع مسير الفلك فى ظلام الليل الذى يشع فيه ضوء البدر ، فطلوع الفجر ، فتباشير الصباح ، فأوج النهار ، فوقت الظهيرة ، ومع تزايد النور فى كل مرحلة زمنية رويداً رويداً يزداد وضوح المعالم للرائين من ركب الفلك ،

---

(١) الشوقيات : ٢/٤٠

فهذه الجزر الكثيرة تحت ستار الليل وفى سهول المياه أشبه بشياه فى سهول الأرض يرعاها ذلك الفلك اليقظ :

على شــبه السُّهــولَ مِنَ المِيَــاه تُحيطُ بِكَ الجــزائرُ كالشِّياه
وأنْتَ لَهُنّ رَاعٍ ذُو انْتِبَــــاه تكر مع الظــلام ولا تقــرّ

أما الفجر فإنه يقوم بمهمة الدليل عند ما يلوح الدردنيل :

إلى أن قيــــل هــذَا الدَّرْدَنِيلُ فَسِرْتُ إلَيْــهِ والفَجْرُ الدَّلِيلُ
يُجيــزك والأَمَان بِه سَـــبِيلُ إذَا هُــوَ لم يجزْ فالماءُ خَمْرُ

ومع ضوء الصباح يزيد الفلك اقتراباً من البسفور :

وبَعْــدَ الأَرْخَبِيــــل وما يَلِيــهِ وتِيهٌ فى العَيَالم أَىّ تِيــه[1]
بَدَا ضَــوْءُ الصَّباح فَسِرْتَ فيــه إلى « البسفور » واقتراب المقرّ

ويستمر الفلك فى رحلته بين مختلف المعالم ، بينما يشتد شوق المسافرين لبلوغ غاية الرحلة :

تُسَــايرك المـــدائن والأَناسِى وفلكٌ بين جـــــوّالٍ وراسِ
وتَحضُنْكَ الجــزائر والرَّوَاسِى وتجرى رِقَّةً لَكَ وهى صَخْرُ

* * *

تســيرُ مِنَ الفَضَــاءِ إلى المضِيــق فآناً أَنْتَ فى بَحْــرٍ طَلِيق
وآونَةً لَدَى مجــرى سَــحِيق كما الشّــلاَّلُ قامَ لَدَيْه نَهْــرُ

* * *

وتَأْتى الأُفــق تَطْــويه سجــلاً لآخــر كالسَّرَاب إذَا أَضَــلاّ
إذا قُلْنَــا المنازل قِيلَ : كَلاَّ فَــدُونَ بُلُوغِها ظَهْــرُ وعَصْرُ

---

(١) الشوقيات : ٢/٤١

وعند ما يكون النهار فى أوجه يكون وضوح الرؤية قد بلغ أوجه كذلك، وتلوح الديار تحت أشعة الشمس الذهبية فى ذروة فتنتها :

إلى أَنْ حــلّ فى الأَوْج النّهــارُ ... وللرَّائِى تبَيَّنَــت الــدِّيَارُ
فَقُلْنَا الشَّمْسُ فِيهَا أَمْ نُضَــارُ ... ويَاقُــوتٌ ومُــرْجَانٌ ودُرُّ

ويصل الشاعر بدوره هنا إلى ذروة إبداعه حقاً فى التصوير والتعبير :

وَدِدْنَا لَوْ مَشَيْتَ بِنــا الْهُوَيْنَــا ... وأَيْنَ لنــا الخُلودُ لَدَيْكَ أَيْنَا
لِنَبْهَجْ خَاطِــراً ونَقَــرّ عَيْنــاً ... بِأَحْسَن ما رَأَى فى البحر سفْر

* * *

يَلُوحُ جامعُ الصُّــور الغَــوَالِى ... وديوان تَفَــرَّدَ بالْخَيَــالِ
ومِــرْآةُ المنــاظِر والمجَــالِى ... تَمُرّ بهــا الطبيعــةُ ما تَمُــرّ

* * *

فَضَاءٌ مِثْــل الْفِرْدَوْس فيــه ... وَمَرْأًى فى البحــارِ بِــلَا شَبِيهِ
فإِيهٍ – يا بَنَــاتَ الشِّــعر – إِيه ... فما لك فى عُقُوقِ الشعر عُذْر

* * *

لِأَجْلِكِ سِــرْتُ فى بَرٍّ وبَحْــرِ ... وأَنْتَ الدَّهْرُ أَنْتَ بكلِّ قُطْر
حَنَنْتُ إلى الطبيعــةِ دُونَ مِصْــر ... وقُلْتُ لَدَى الطَّبِيعَةِ : أَيْنَ مِصْر ؟

* * *

فَهَــلاَّ هَزَّكَ التِّبْرُ المــذابُ ... وهــذَا اللَّوْحُ والقَلَمُ العجابُ
وما بَيْنِى وبَيْنَهُمــا حِجَــابُ ... ولا دُونِى عَلَى الآياتِ سِــتْرُ

إن جمال الطبيعة ليس هو وحده الذى يمنح شاعرنا هذه الدفقات من الإبداع ، وإنما أيضاً شعوره بنوع من الانتماء إلى هذه البلاد الساحرة ، ولكنه لا ينسى أمه مصر، ولا طبيعتها الجميلة الهادئة ولا وفاءه لها . أليس هو القائل فى الأتراك :

نَحْنُو عليكُم ولا نَنْسَى لَنَا وَطَناً ولا سَرِيراً ولا تاجاً ولا عَلَمَا
هَــذِى كَرَائمُ أشياءِ الشعوب فإنْ ماتَتَ ، فكُلّ وُجودٍ يُشْبِه الْعَدَما

وكأن بنات الشعر قد استجابت لهذه الدعوة فتتألق فيهن مجالى الطبيعة فى أروع صورة بعد أن بلغ النهار أوجه ، وتتهادى الكلمات على قلم الشاعر حاملة هذه المعانى البديعة التى لا أحسب شاعراً فى العربية قد وفق إلى مثلها ، والتى لا نجد لها مثيلا فيما نعرف من روائع الشعر الغنائى العالمى :

جِهَاتٌ أَمْ عَــذَارَى حالِيــاتُ ومـــاءٌ أَمْ سَماءٌ أَمْ نَبَــــاتُ
وتلكَ جَــزَائِرٌ أَمْ نَيِّـــرَاتُ وكيف طلُوعها والوقْتُ ظُهْــرُ

* * *

جَلاهَا الأُفق صفراً وهى خضرُ كَزَهْرٍ دونَهُ فى الرَّوْضِ زَهْرُ
لَوَى بحــر بهــا والْتَفّ بَحْــرُ كما ملكَتْ جِهَاتِ الدَّوْح غُدْر

* * *

تَلُوحُ بهــا المساجــدُ باذِخــاتِ وتتَّصِــلُ المعـــاقِلُ شَامِخَاتِ
طِبَــاقاً فى العُــــلَى مُتَفَاوِتاتِ سَمَا برٌّ بهـــا وانْحَــطَّ بَرُّ

* * *

وكَمْ أَرْضٌ هُنَا لِكَ فــوق أَرْضِ ورَوْضٍ فوقَ رَوْضٍ فوقَ رَوْضِ
ودُورٌ بَعْضُهَا من فَــوْقِ بعضِ كسَطْرٍ فى الكتابِ عَــلَاهُ سَطْرُ

* * *

سُطورٌ لا يُحِيــطُ بِهِنَّ رَسْمُ ولا يُحْصِى مَعَــانِيهِنَّ عِلْمُ
إذا قُــرِنَتْ جميعاً فَهِىَ نَظْمُ وَإنْ قُرِئَتْ فَرَادَى فَهِىَ نَثْرُ

* * *

تـأَرّجَ كُلَّما اقتربَتْ وتزكُـــو ويجمعُهــا مِنَ الآفــاقِ سِلْكُ
نُشــاكِلُ ما بِهِ فالقَّصْرُ فُلْكُ على بُعْــدٍ لَنَــا والفُلْكُ قَصْــرُ

ونون دُونَهَـا فى البَحْـرِ نُونُ   من البسفور نَقّطَهـا السَّفِينُ

كَأَنَّ السّبل فيـه لَنَـا عُيـونُ   وإنسـانُ السَّفِينَـة لا يقرّ

ولعلنا لاحظنا أن الإشارة إلى التتابع الزمنى قد استمر فى هذه الأبيات بالإشارة إلى منتصف النهار أو وقت الظهر . ويكون هذا التتابع الزمانى والمكانى هو الخيط الذى ينتظم هذه الدرر الشعرية الرائعة الفاتنة .

وها هى رحلة الفلك تبلغ غايتها ويلقى الراحلون ما هم أهل له من تكريم فى هذه الديار الأنيسة وهذا الموضع الساحر :

هُنَـالِكَ حفَّت النُّعْمَى خُطانا   وحَاطَتْنَـا السَّـلامة فى حِمَانَا

فألَقَيْنَـا المراسِىَ واحْتَـوانا   بِنَـاءٌ للخِـلافَةِ مُشْـمَخِرٌ

* * *

فيا مَنْ يَطْلُبُ المـرأى الْبَدِيعـا   ويعْشَـقه شَهِيـداً أوْ سَمِيعَا

رَأَيْتَ مَحَـاسِنَ الدُّنْيَـا جميعَا   فَهُنَّ الْوَاو ، والبسفور عَمْـرُو

ولشوقى قصيدتان قالهما فى وصف الطبيعة وهو يشرف عليها فى السفينة . إحداهما فى مشرق ومغرب الشمس . والأخرى فى منظر طلوع البدر .

ونحن نحس فى وصف شوقى هنا بامتلاء الألفاظ والمعانى بذلك الماء الذى أشار إليه القدماء ، فهو شعر كثير الماء كما كانوا يقولون . كأنه نبات ارتوى وارتوى حتى شبع وحتى بدت أغصانه مخضلة بالماء مائلة لكثرة ما تحمل من ثمار . . إنه نبات لم يعرف العطش ولا الذبول ، والذين يعرفون فن شوقى يحسون أنه قال هـذه القصيدة فى شىء من العجلة ، ولكنه فيها مصور وفيلسوف معاً ، فهو يصف رحلة الشمس اليومية ورحلتها الأبدية ، وهو فى الأولى يصف ما تراه العين :

وتصْعَـد من غير ما سـلّم   فَيَا للمصَـوّر هـذا الصُّعود !

وهـذا المنِير القريب القريب   وهذا المنِير البَعيد البَعيـد

وهــذا المنِــير الذى لَنْ يرى   وهـــذا المنِير وكُلٌّ شَهِيــد
وهــذا الجســام الخَفِيف الخُطَا   وهـــذا الجسام الذى مايميــد

وهو فى الثانية يصف تراكم هذه الرحلة اليومية وفعلها بالأشياء والنبات والناس :

هِىَ الشمس كانتْ كما شَاءَها   ممــات القديم حيــاة الجَدِيد
تردّ الميـــاه إلى حَدّهـــا   وتبلى جِبَــال الصَّفَا والحَدِيد
وتطلع بالعَيْش أو بالــرَّدَى   على الزَّرع قائِمَـــهُ والحَصِيد
وتسعَى لِذَا النَّــاس مهما سَعَت   بخير الوُعُــودِ وشَرّ الْوَعِيــد

أما قصيدته فى طلوع البدر كما يبدو من السفينة ، فهو فيها أقل تأملا فى طبيعة الأشياء وأكثر افتتاناً بالجمال المنظور :

والبدر مِنْك على العَوالم يَجْتَلى   بِشَرّ الوُجُوه وزَحْمَــةِ الأَبْصَارِ
مُتقدّم فى النُّور محجوبٌ به   مُوفٍ على الآفاق بالأَسْـــفَارِ
يا دُرَّةَ الغــواص أَخْــرَجَ ظافراً   يُمْنَاهُ يَجْلُـــوهَا على النُّظَّارِ
مُتهلِّلاً فى المــاءِ أَبْدَى نِصْفَه   يَسْمُو بها ، والنِّصْف كاسٍ عَارِ
وافى بِك الأُفْق السَّماء فأَسْفَرَت   عن قُفْل ماسٍ فى سِوار نضارِ
المــاءُ والآفاقُ حَوْلك فِضَّـــةٌ   والشُّهْب دِينَـــارٌ لَدَى دِينارِ
والفُلْكُ مُشْرِفَةُ الجوانبِ فى الدُّجَى   يَبْـــدُو لَهَا ذَيْلٌ من الأَنْوَارِ
بَيْنَـــا تخطّر فى لُجَيْن مائج   إذْ تَنْثَنِى فى عَسْـجَدٍ زَخَّارِ

فى أوربا :

أقام شوقى — كما هو معروف — عدة سنوات فى فرنسا فى أيام الصبا والشباب ، متلقياً العلم ، ومطلعاً على جوانب الحياة فى تلك البلاد التى كانت

مشرقاً لنور الحضارة ، وفى قصيدته « باريس » تلمس ارتباطه العاطفى بتلك البلاد التى قضى فيها هذه الأعوام وخاصة حين تعرّضت لغزو الألمان :

يا مَكْتَبِى قبلَ الشَّبابِ ومَلْعَبِى ... ومَقِيل أيَّام الشباب النَّوكِ[1]

ومَـــرَاحَ لَذَّاتى ومغداهـــــا على ... أُفقٍ كجناتِ النَّعِيمِ ضَحُوكِ

وسَمَاءِ وَحْى الشِّعر من مُتَـــدفِّقٍ ... سَلِسٍ على نول السَّماءِ محوكِ

لمَّا احْتَملت لَكَ الصنيعةَ لم أجِدْ ... غَيْرَ القَوافِى ما به أَجْـــزِيكِ

إنْ لم يَقُـــوكِ بكلّ نفسٍ حرةٍ ... فاللهُ جَـــلَّ جَـــلالهُ وَاقِيـــكِ

وأنت تحس هذه العاطفة أيضاً فى قوله عندما زار قسم الأزهار والثمار فى معرض باريس ١٩٠١ :

رَزَقَ اللهُ أَهْـــلَ باريس خَيْـــراً ... وأرَى العَقْل خَير مَارَزَقُوهُ[2]

عِنْـــدَهُمْ للثِّمـــــارِ والزَّهْرِ مِمَّا ... تُنْجِبُ الأَرْضُ مَعْرِضٌ نَسَقُوهُ

جَنَّـــةٌ تخلبُ العُقـــولَ وَروْضٌ ... تجمعُ العَيْنَ منـــــه ما فَرَقُوهُ

مَنْ رآهُ يقول قد حُرِمُوا الْفِرْ ... دَوْسَ لكِنْ بِسِحْرِهِمْ سَـــرَقُوهُ

وهذا الارتباط العاطفى تجده أيضاً فى قصيدته (غاب بولونيا) الذى أثار فى نفسه ذكرى جميلة عزيزة من ذكريات الهوى والشباب :

يا غَابَ بولونٍ ولِى ... ذِمَمٌ عليكَ وَلِى عُهُود

زَمَنٌ تقضَّى للهَـــوَى ... ولَنَا بظِلِّكَ هَلْ يَعُود

حلْمٌ أُرِيدَ رُجُوعَـــــهُ ... ورُجوعَ أحْلامِى بَعِيد

وهَبِ الزَّمَانَ أعادَهـــا ... هَلْ للشَّبِيبَةِ مِنْ يُعِيد ؟

---

(١) الشوقيات : ٨٣/٢

(٢) الشوقيات : ٨١/٢

ففى هذا المكان البديع جرى لقاء الحب السعيد فى تلك الأيام الهانئة وقد هدأ الليل والطير والأنام :

هَلاّ ذكرت زَمَان كُنّـــا ۝ والزَّمان كمـــا نُريد[1]

نَطْوِى إليك دُجَى اللَّيَـــا ۝ لِى والدُّجَى عَنّـــا يَذُود

فنقُـــولُ عِنْدَكَ ما نَقُو ۝ لُ ولَيْسَ غَيْرُك ما يُعِيـــد

نُطْقِى هَـــوى وصَبابةٌ ۝ وحَدِيثهـــا وترٌ وعُـــود

نسرِى ونمـــرحُ فى فَضَـــا ۝ ئِك والرِّياح به هُجـــود

والطَّيْرُ أَقْعَدَهـــا الكَرَى ۝ والنَّـــاسُ نَامَتْ والْوُجُود

فَنبِيتُ فى الإيناسِ يَغْ ۝ ـبِطُنَا بِهِ النَّجْمُ الوَحِيـــد

واننْدبت الحكومة المصرية (أحمد شوقى) للاشتراك فى المؤتمر الشرقى الدولى الذى انعقد فى سبتمبر عام ١٨٩٤ فى مدينة جنيف ، وفجر هـذا الرحيل إلى تلك البلاد البديعة فى نفس شاعرنا ينابيع فنه العذب ، وهناك همزيته الطويلة الشهيرة التى بدأها بوصف الرحلة البحرية :

هَمَّت الفُلْك واحتواها الماءُ ۝ وحَدَاهَا بمن تقـــل الرجاءُ

ضَرَبَ الْبَحْر ذُو العُباب حَوالَيْـ ۝ ـها سَماءً قد أكبرتها السَّماءُ

ورأى المارِقُونَ من شركَ الأر ۝ ض جبـــالا تمدّهـــا الدَّماءُ

لُجَّة عِنْد لُجَّة عِنْد أُخْرَى ۝ كهِضَابٍ ماجَتْ بها الْبَيْدَاءُ

وسَفِينٌ تَلُوحُ طَوْراً وحِيناً ۝ يتولَّى أَشْبَاحَهُنَّ الخَفَـــاءُ

صاعِداتٌ فى سَيْرِها نازِلاتٌ ۝ كالْهَـــوَادِى يَهُزُّهُنَّ الْحِدَاءُ

ومنها يرحل شوقى فى سفينة الشعر عبر محيط التاريخ العظيم من أيام مصر القديمة حتى أيامها فى عصره .

---

(١) الشوقيات : ٢/٢٧

ونحن نريد الآن أن نقف مع درته النفيسة التى نظمها مصوراً « جنيف » وضواحيها فى إطار ليلة من ليالى العمر السعيدة الهانئة التى فيها بالحبيب لقاءٌ فيه كل معانى السمو والنبل فى أكتاف تلك الطبيعة الفاتنة الساحرة .

والشاعر يمس ألفاظ القصيدة كما يلمس الفنان الموهوب اللوحة بريشته مساً رشيقاً خفيفاً ، فلا تلبث أن تتحول إلى قطعة من قطع الفن العالى . وتتوالى المعانى فى هذه القصيدة ، كما تترى أطياف الحلم الجميل رقيقة رشيقة :

لا السُّهْدُ يُدْنِينِى إلَيْه ولا الكَرَى ... طَيْفٌ يَزُورُ بفَضلِه مهما سرى[1]
تخــذَ الدُّجَى وسَماءَهُ ونُجُومَــهُ ... سُبُلاً إلى جَفْنَيك، لم يرض الثَّرَى
وأَتَاكَ مَوْفُورَ النَّعِيم . تَخَالَهُ ... ملكاً تنمّ به السماءُ مُطَهَّــرا
عَلِمَ الظلام هُبوطه فمشَتْ له ... أهدابه يـأْخُــذْنَهُ مُتحدّرا
وحمى النسائم أن تروح وأن تجى ... حذراً وخَوْفاً أن يراع ويذعرا
ورَقَدَتْ تزْلف للخَيالِ مكانه ... بين الجفُون وبين هدبك والكَرَى

وفى تلك الليلة الهادئة الهانئة يكون ذلك اللقاء الجميل ونجوى الحبيبين ، وهو لقاء يمر بنا طيفه فى هذه القصيدة مرور الحلم السعيد فى إطار الطبيعة السويسرية الفاتنة ، حيث تلتقى قمم الجبال البديعة والكواكب والسحاب وحيث تنتثر النجوم كالجواهر فى هذا الفضاء الرائع :

فى ليــلةٍ قَــدِمَ الوُجود هِــلالها ... فدنَتْ كَواكِبهــا تُعَلِّمه السُّرَى
وتُريهِ آثارَ البــدُور ليقْتَفِى ... ويرَى له الميــلاد أن يتصدَّرا
ناجَيْت مَنْ أَهْــوَى ونَاجَانى بهــا ... بين الرِّياض وبين ماءِ سويسرا
حيثُ الجبال صِغارها وكِبارهــا ... من كُلِّ أبيض فى الفضاء وأَخْضرَا
تخذَ الغَمام بها بُيوتاً فانْجلَتْ ... مَشْبُوبة الأَجْرام شائبة الذُّرَى

---

(١) الشوقيات : ٣٣/١

والصَّخْر عالٍ قامَ يُشْبه قاعِـداً ... وأناف مكشوفَ الجوانب مُنْذِرَا
بين الكَواكِب والسَّحاب ترى له ... إِذْناً مِنَ الصَّخْرِ الأَصَمّ ومشفرَا
نَشَرَ الفضاءُ عليه عِقْد نُجومــه ... فَبَدَا زَبَرْجَدِه بهــنّ مجوهَرَا

ويستمر الشاعر فى وصف هذه الطبيعة الرائعة قبل أن يصل خيط هذا الهوى الجميل الذى تشكل هذه الخلفية الطبيعية الجميلة إطاراً له :

والمــاءُ من فَوْقِ الدِّيار وتحتِهــا ... وخِلالها يَجْرِى ومن حَوْل الْقُرَى
مُتَصــوِّباً متصعِّداً مُتَمَهِّــلاً ... مُتَسَرِّعاً ، مُتَسَلْسِــلاً مُتَعَثِّرَا
والأَرض جِسْرٌ حيثُ دَرَتْ ومعبر ... يَصِلان جِسْراً فى الميـــاهِ ومَعْبَرَا
والفُلْك فى ظِلِّ البيوت مَوَاخِراً ... تَطْوِى الجداول حَوْلَها والأَنْهُرَا

أرأيت كيف كان رحيل الشاعر العربى إلى تلك الأماكن الفاتنة نعمة على الشعر العربى فى المشرق ، هذا الذى حرم وصف الطبيعة الجميلة تلك الآماد المتطاولة . لقد أسرف فى وصف القفار الموحشة التى تكثر فى ربوع هذا الشرق . بينما امتلأ الشعر الأندلسى الذى نشأ فى أحضان الطبيعة الجميلة بتصاوير رائعة لها حتى فى قصائد المديح . وغيرها .

ولكن دعنا نمضى فى رحلة الهوى والجمال مع شاعرنا فى تلك الليلة الهائنة من ليالى العمر وسط أبدع مجالى الطبيعة والناس :

حتى إذا هَدَأَ المــــلا فى ليــــله ... جاذَبت ليــــلى ثَوْبه مُتَحَيِّرَا
وخرجت من بين الجُسور لَعَلَّنى ... أَسْتَقْبِل العرفَ الحبيبَ إذا سَرَى
آوِى إلى الشَّجَرَات وهى تهزنى ... وقد اطمأَنَّ الطَّير فيها بالْكَرَى
ويَهُــزُّ منِّى المـــــارَ فى لَمَعَــانِه ... فأَميل أَنْظُرُ فيه أَطْمَعُ أَنْ أَرَى
وهُنَالِكَ ازْدَهَت السماءُ وكان أن ... آنست نوراً ما أَتَمَّ وأَبْهَــرَا
فســرِيْتُ فى لَأْلائِه وإِذَا بِهِ ... بدرى تُسَايِره الكواكِب خُطَّرَا

حُـلْمٌ أَعَارَتْنى العِنَـاية سَمْعَهـا فيه ، فما استَتَممتُ حتى فُسِّرَا
فَرَأَيْت صفوى جَهْرَةً وأَخذت أُنْ ـسى يقظةً ، ومُناىَ لبَّت حُضَّرَا
وأَشَرْت هَلْ لقيا فأَوْحَى أن غداً بالطودِ أبيض من جبال سويسرَا

ويكون ذلك مدخلا للعودة إلى تصوير الشمس ورحلتها اليومية فى السماء ، وكأنما شوق فى رحيله يرى كل شىء بعين الرحلة ، لقد صور الشمس فى رحلتها اليومية والأزلية فى القصيدة الدالية السابقة التى نظمها وهو يرقب الشمس من أعلى السفينة ، وها هو الآن يعود إلى تصوير الشمس فى رحلة الشروق والغروب تصويراً أقل ما يقال فيه أنه فاتن للفكر كما هو فاتن للعين ، ولقد قرأت هذه القصيدة مرات ومرات ومرات ومع هذا فأنا أجد مع كل قراءة جديدة لذة جديدة ، وهذا هو الفن الخالد ، سواء كان شعراً أم لحناً أم رسماً ، إن قول أبى نواس لينطبق أكثر على هذا الفن الخالد المتجدد العطاء:

يزيدكَ وَجْهُـهُ حُسْناً إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَـرا

فلنتأمل معاً ريشة شاعرنا وهى ترسم هذه اللوحة الزمنية البديعة لرحلة الشمس الأزلية :

إنْ أَشْرَقَتْ زَهْراءُ تَسْمُو للضُّحَى وإذا هَوَتْ حمراءُ فى تلك الذُّرَى
فشُروقُها مِنْـهُ أَتَمّ مَعانِيـا وغُروبُهـا أَجْلَى وأَكْمَلَ مَنْظَرَا
تَبْدُو هُنالِكَ للوُجُـودِ وَلِيـدةً تَهْنَا بِها الدُّنْيَـا ويَغْتَبِطُ الثَّرَى
وتُضِىءُ أَثْنَـاءَ الفَضَـاءِ بغرّةٍ لاحَتْ برأْسِ الطَّوْدِ تاجاً أَزْهَـرا
فَسَمَتْ فكانت نِصْفَ طارٍ مابدَا حتى أَنَافَ فلاحَ طَاراً أَكْبَرَا
يَعْـلُو العَـوَالِم مُسْـتَقِلاًّ نامِياً مُسْتعْصِياً بمكَانِه أن ينقَـرَا
سـالَتْ به الآفَاقُ لكن عَسْجَدًا وتَغطَّتِ الأَشْـباحُ لكن جَوْهَرَا
واهْـتَزَّ فالدُّنْيـا به مُهْتزَّةٌ وأَنارَ فانكَشَف الوُجُـود مُنَوَّرَا

حتى إذا بلـغَ السُّـمُوّ كمـاله | أَذِنَت لداعِي النَّقْص تهوى الْقَهْقَرَى
فَـدَنَتْ لِنَاظِرها ودَانَ عَنَانُهـا | وتَبَـدَّل المسْتَعْظِم المسْتَصْغِرَا
وسَمَا إليها الطَّوْدُ يأْخُذها وقـد | جَعَلَتْ أَعالِيـهِ شَرِيطاً أَحْمَرَا
مَسَّتْهُ فاشتعلَتْ بهـا جَنَبَـاتُه | وبَدَت ذُرَاهُ الشُّمّ تحملُ مجمرَا
فكأَنَّما مَـدَّت به نيرانهـا | شَرَكاً لتصْطادَ النَّهارَ المـدْبِرَا
حَرَقَتْـه واحترقَتْ به فَتولَّيَـا | وأَتَى طُلوهما الظـلامُ فَعَسْكَرَا
فشُرُوقُها الأَمل الحبيب لمنْ رَأَى | وغُرُوبُها الأَجَلُ الْبَغِيضُ لمنْ دَرَى

فالجمال فى هذه الأبيات بمقدار اللمسات الرشيقة اللطيفة البسيطة لريشة الشاعر ، وأنت تراه يتناول الكلمات تناولا هيناً ليناً لينظمها كما ينظم الجوهرى الدرر فى العقد بذوق عال رفيع ، إنها طوع بنـانه المدرّب على الالتقـاط والنظم . .

وفى هذه القصيدة يستمر شوقى فى التقاط صور الطبيعة الساحرة لمدينة جنيف وضواحيها :

أَرضٌ تمـوجُ بهـا المناظر جَمَّـةٌ | وعَوَالِمٌ نِعْمَ الكِتاب لمنْ قَرَا
وقُرَى ضَرَبْنَ على المدائن هَالَةً | ومَـدَائنٌ حلّيْن أَجيـادِ الْقُرَى
ومزارعٌ للنَّـاظِرين روائـعٌ | لبِسَ الفضاءُ بهـا طِرازاً أَخْضَرَا
والمـاءُ غـدْرٌ ما أَرَقّ وأَغْزَرَا | وجداولٌ هُنَّ اللُّجَيْنُ وقَدْ جَرَى
فَحَشَوْنَ أَفـواه السُّهُولِ سبائكاً | ومَلأْنَ أَقْبـال الرَّوَاسِخ جَوْهَرَا
قد صَغَّر الْبُعْـدُ الوجُودَ لَنَا فَيَا | للهِ ما أَحْلَى الوجُـودَ مُصَغَّـرَا

إن الشاعر هنا لا يتحدث عن الرحيل وإنما نحن نجنى ويجنى الشعر العربى منه ثمرة الرحيل ناضجة طازجة شهية ، وهذه هى الميزة الرئيسية لرحيل الشعراء فى العصر الحديث .. قصد إلى الرحيل من أجـل الفن الخالص وثمرات

خالصة للفن تبعد به عن ذلك الغرض الاقتصادى الذى أساء إساءة كبيرة إلى سمعته على مر التاريخ .

لكن الطبيعة الجميلة وحدها لم تكن كل ما هزّ شوقى فى رحلاته فى ربوع أوربا وإنما هزّته أيضاً الآثار التاريخية ، وها نحن نجنى بقصيدته « روما » ثمرة أخرى من ذلك الفن الخالص القليل فى تاريخ الشعر العربى من ثمار رحيل شاعره وقراءته فى كتاب الأرض الضخم .. إن شوقى يقول عن هذه القصيدة وهو يهديها إلى صديقه المؤرخ الأستاذ إسماعيل بك رأفت : إنها أدنى إلى التاريخ منها إلى الشعر ، ولكنها مع ذلك قطعة من قطع الفن الجميل ، وحسبنا منها هذا التأمل العميق لأحداث الحياة :

وبقايا هَيَــــاكِلٍ وقُصُــــورٍ	بين أَخْذ البلَى ودفْع المتانَه[1]
عَبَثَ الدَّهْر بالحوارىّ فيهــــا	و « بيولُيُوس » لم يَهب أُرْجُوَانَه
وجَرَتْ ههُنَــا أُمُــورٌ كِبــارٌ	وَاصَلَ الدَّهر بعــدها جَرَيانَه
راحَ دِينٌ وجــــاءَ دِينٌ وَوَلَّى	ملكُ قـــوم وحــلَّ ملكٌ مَكانَه
والذى حصَّــل المجــدّون إهْرَا	قُ دماءٍ خليقَــةٍ بالصِّيــــانَه
بَلَدٌ كانَ للنَّصـــــارى قتـــاداً	صارَ مُلْك القسوس عرشَ الدِّيَانَه
وشُــعُوبٌ يمحُــونَ آية عِيسَى	ثم يعــلُون فى البريّةِ شــانَه
عــالمٌ قلّــبٌ وأحــلام خلقٍ	تتبارَى غَبَــاوَةٌ وفطَــانَه

* * *

ولست أريد أن أطيل الوقوف عند فن شوقى الذى تمخض عن رحلاته بتأمل قصائده فى تركيا ، مثل : (كوك صو) ، و(وداع فروق) . فحسبنا درس قصيدته (البسفور كأنك تراه) فهى نموذج كاف لتصوير شوقى لمواطن الجمال الطبيعى فى تلك البلاد ، ولست أريد كذلك أن تقف مع أشعار

---

(١) الشوقيات : ١/٣١٠

شوقى التى قالها فى المنفى ، فلها شهرة كبيرة ، وإن كانت نونيته وسينيته معارضتين لابن زيدون والبحترى ، أو نسجاً على منوالها .

والحق أن أهمية المنفى فى حياة شوقى وشعره إنما تأتى — كما أسلفنا — من التغير العميق الذى طرأ على هذه الحياة وهذا الشعر نحو الحياة العامة ، والبعد — ما أمكن — عن القصر ومجريات الأمور فيه .

وشوقى فى الواقع أصبح لسان الأمة حتى حين يقول الشعر فى بعض الإنجازات الملكية ، كافتتاح نادى الموسيقى الشرقى وغيره ، فهو دائماً يلح بلباقة وكياسة ووضوح أيضاً على الشورى والبرلمان ، وهو يشير إلى الالتئام الواجب بين رأس الأمة وجسمها .

وإذن فلترحل مع شوقى إلى الشام .. إلى لبنان وسوريا ، وسوف نسر بهذه الرحلة مع شاعرنا الذى يرتبط بتلك البلاد ارتباطاً قوياً ، فهو يجد شعره فيها مكرماً يرويه أهل سوريا ولبنان ، ويبالغون فى تكريم صاحبه ، وقد أسعدهم حلوله ضيفاً على ديارهم وافتتانه بطبيعتها الجميلة وتغنيه بها ، وهم من هم حباً للشعر واحتفاء به .. ألم يحملوا هذا الفن معهم إلى تلك البقاع النائية فى المهاجر الأمريكية حيث وصل شدوهم به إلى العالم العربى عالياً مؤثراً ؟

والإعجاب المتبادل بين شوقى وبين لبنان الجميل وأهله يتجلى فى قوله فى « زحلة » :

أَحْلَلْتِ شِعْرِى مِنْكِ فى عليا الذُّرَى ... وجَمَعْتِهِ برِوايةِ الأَمْلاكِ

إن تكرمى يا زحل شِعْرى إننى ... أَنْكَرْتُ كل قصيدةٍ إلاَّكِ

أَنتِ الخيال بَدِيعه وغَرِيبه ... اللهُ صاغَكِ والزَّمان رَوَاكِ

وهذا يسلمنا بشكل طبيعى إلى تغنى شوقى بالطبيعة الرائعة فى لبنان ، وهل هناك أبدع من زحلة التى تبدو للمقبل عليها أو الصاعد إليها كأنما هى لوحة رائعة مرسومة فى الفضاء بريشة أعظم فنان ؟ وهل هناك أجمل من هذا

الشعر الذى صاغه فيها أمير الشعر ؟ فزحلة وما قاله شوقى فيها يتباريان جمالا وفتنة .

ولعل أروع مواضع هذا الوصف تصوير شوقى لتلك العشية التى مرت به فيها والتى فتقت عبقريته عن أجمل بيان :

لم أنْسَ من هِبـة الزّمانِ عشيةً ... سَلَفَتْ بظِلك وانْقَضَتْ بذراكِ
كُنْتِ العرُوس على مِنَصَّة جنحها ... لبنان فى الوَشْى الكريم جَلاَّكِ
يمشِى إليكِ اللّحْظُ فى الدِّيباج أوْ ... فى العاج من أىَّ الشِّعاب أتاكِ
ضَمّتْ ذِرَاعَيْها الطبيعة رِقّـةً ... صنّين والحرمون فاحْتَضَناكِ
والبَـدْر فى ثَبَج السماء مُنَـوّر ... سالَتْ حـلاهُ على الثّرَى وحُلاكِ
والنّيِّرَات من السَّحـاب مُطِلَّةٌ ... كالْغِيد من سِتْرٍ ومن شباكِ
وكَأنَّ كُلّ ذُؤَابَةٍ من شـاهِقٍ ... ركن المجَرَّة أوْ جِـدَارَ سمـاكِ
سَكَنَتْ نَوَاحِى اللَّيْـل إلاَّ أنَّةً ... فى الأَيْكِ أوْ وتْراً شَجِىّ حرَاكِ

ثم لنتأمل تصوير شوقى لجبل لبنان :

أبْهَى مِنَ الْوَشْى الكَرِيم مُروجُـهُ ... وألَذُّ من عطـل النُّحُور مُروته
يَغْشَى رَوَابيـه على كافُورِهـا ... مِسْكُ الوِهَـادِ فتبقه وفتيته
وكَأَنَّ أيّامَ الشباب رُبُوعـه ... وكأَنَّ أحلامَ الكِعَاب بُيُـوته
وكَأَنَّ رَيْعَـانَ الصِّبـا رَيْحَانه ... سِـرّ السُّرور يجوده ويَقُـوته
وكأَنَّ أَثْدَاء النّـوَاهِد تينـه ... وكأَنَّ أَقْرَاطَ الوَلائدِ تُـوته
وكأَنَّ هَمْسَ الْقَاع فى أُذُن الصَّفَا ... صَوْتَ العتـابِ ظُهوره وخُفوته
وكأَنَّ ماءَهمـا وجَرس لُجَيْنَه ... وضَح العَرُوس تبينـه وتصيته

وشوقى ينتقل من لبنان إلى سوريا ، وإذا كان قد ترك لبنان فلم يكن لبنان إلا طريقاً إلى دمشق الفيحاء :

خلّقت لبنـــان جنّات النعيم وما نبّئت أن طريق الخلد لبنـــانُ
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفةٍ فيها الندى وبها طيٌّ وشيبانُ

ودمشق هي الطبيعة الجميلة .. هي الجنات والريحان ، وهي بردى يصفق بالرحيق السلسل ، وهي الحور ، وصادحات الطيور ، وهي ما رقّ من النسيم ، وما راق من الزهور :

قال الرِّفاقُ وقــد هَبّتْ خمائِلُها الأَرضُ دارٌ لهـا الفَيْحَاءُ بُستَانُ
جَرَى وصَفَّقَ يَلْقَانَا بها بَرَدَى كما تَلَقَّاكَ دُونَ الخُلْدِ رِضْوانُ
دخلتهـا وحَواشِيهـــا زُمُـــرّدَةٌ والشَّمْسُ فوقَ لُجَيْنِ الماءِ عِقْيَانُ
والحُورُ في دَمّر أَو حَـوْلَ هامَتِها حُورٌ كَواشِفُ عن ساقٍ ووِلْدَانُ
والطَّيْرَ تَصْدَحُ من خَلْفِ العُيونِ بها وللعُيــونِ كما للطَّيْرِ أَلْحَــانُ
وأَقْبَلَتْ بالنَّبَاتِ الأَرضُ مختلفاً أَلْوَانُه فهــو أَصبــاغٌ وأَلْوَانُ
وقد صَفَا بَرَدَى للرِّيح فابتردَتْ لَدَى ستور حَواشِيهنّ أَفْنَـانُ

لكن لبنان وسوريا ليسا فقط طبيعة بديعة ، ففي سوريا أولئك الرجال الكرام ذوو الحسب والنسب العريق ، وشوقي يريد لهم ولبلادهم كل رفعة ، وهـذا هو موقف شوقي في غير قصيدة له في سوريا .. إنه ذلك الناصح الصادق المخلص الذي تربطه بالبلاد وأهلها تلك العاطفة الكريمة التي تجعله دائماً في موقف الحريص عليها حرصاً يدفعه إلى إسداء النصح الخالص :

نَزَلَتْ فيهـا بفِتيانٍ جَحَاجِحَةٍ آباؤهم في شباب الدَّهْرِ غَسَّانُ
بِيضُ الأَسِرَّةِ باقٍ فيهمُ صيَــدٌ من عبدِ شمسٍ وإِنْ لم تَبْقَ تِيجَانُ
يا فِتْية الشام شكراً لا انقضاء له لو أَنَّ إحسانكم يجزيه شُكرانُ
ما فوق رَاحَاتكم يوم السَّمَاح يَدٌ ولا كأَوْطَانِكُم في البشر أَوْطَانُ
خَمِيــــلةُ اللهِ وَشّــتْها يَدَاه لكم فَهَــلْ لــكُم قيِّمٌ منها وجنّانُ

شَيِّدُوا لَهَا الملكَ وابْنُوا رُكْن دَوْلَتها ... فالملكُ غَرْسٌ وتجـديدٌ وبُنْيَانُ
الملك أَنْ تعملُوا ما اسطعتُموا عَمَلاً ... وأَنْ يبين على الأَعمالِ إتْقَانُ
الملك أن تخرجَ الأَموال نَاشِطةً ... لمطلبٍ فيـه إصْـلاحٌ وعُمْرَانُ
الملكُ تحت لسـانٍ حـوله أَدَبٌ ... وتحت عَقْل على جنبيه عِرْفَانُ

ولبنان أيضاً عند شوقى ليس فقط هذه الطبيعة الفاتنة ، ولكن أيضاً رجال البيان الراقى ، وملوك الشعر ، ومن يتحقق فيه ذلك المطلب العزيز أن يكون شعره مستوعباً لعلمه ، وتلك لمحة رائعة ومعنى عظيم عميق ، فالشعر العظيم إنما يرتكز على علم عظيم ، وليس ذلك الشعر الذى يرتكز على سطحية فى الفكر أو نقص فى العلم بما يعالجه الشاعر ، وهم أولئك الرجال الذين رقت طباعهم رقة الطبيعة فى بلادهم الجميلة الساحرة :

ركز البَيَـانُ على ذُرَاك لِواءَهُ ... ومَشَى مُلوكُ الشِّعْر فى مَغْنَاكِ
أُدبَاؤُكَ الزُّهْر الشُّموس، ولا أَرَى ... أَرْضاً تمخَّض بالشُّموسِ سِوَاكِ
من كُلّ أَرْوع عِلْمِه فى شِعْره ... ويَرَاعَهُ من خلقِـه بمـلاكِ
جَمَعَ القَصَائِدَ من رُبَاكِ وربمـا ... سَرَقَ الشمائل من نَسِيم صبَاكِ

وشوقى يحمل للبنان وشعرائه وأدبائه كل تقدير :

قالَتْ تَرَى نَجْمَ الْبَيَانِ فقُلْتُ بَلْ ... أُفُقَ الْبَيَـانِ بِأَرْضِكم يَمَّمْتُه
بَلَغَ السُّهـا بشُموسِه وبُدُوره ... لُبنان ، وانتظَمَ المشارِق صِيتُه
من كلِّ عالى القدر من أَعْلامِـه ... تَتَهَلَّلُ الْفُصْحَى إذا سَمَّيْتُـه
حامِى الحقيقة ، لا القَدِيم يَؤُودُه ... حِفْظاً ، ولا طَلَبَ الجديد يَفُوتُه
وعلى المشيد الفَخْم من آثاره ... خُلُق يَبِينُ جَـلالُه وثُبـوتُه

على محمود طه :

ونحن الآن مع شاعر عرف كذلك قيمة الرحيل وأثره العميق على فنه ، فأكثر من الرحلة إلى مواطن الجمال فى أوربا ، وجنى هو وجنى الشعر العربى ثماراً تمثلت فى قصائده التى صور فيها رحلاته إلى تلك البلاد الجميلة واستمتاعه هناك بجمال الطبيعة والمرأة استمتاعاً محاطاً بسياج الأدب الراقى والفن المهذّب فى إيطاليا والنمسا وسويسرا وغيرها ، ومن منا لم يستمتع بقصيدة الجندول التى جرت ألحاناً عذاباً مصوّرة بهجة الشرقى حين يحل بهذه البلاد الفاتنة ؟

أَيْنَ من عَيْنَىّ هَاتِيكَ المجَــالِى ــــ يا عَرُوسَ البَحْر يا حُلْمَ الْخَيَالِ
أَيْنَ عُشَّــاقُكِ سُمَّار اللَّيَــــالِى ــــ أَيْنَ من وَادِيكِ يامَهْدَ الْجَمَالِ
مَوْكِبُ الْغِيدِ وعِيــدُ الكَرْنَفَالِ ــــ وَسُرَى الْجُنْدُول فى عَرْضِ القنَالِ

* * *

بين كأْسٍ يَتَشهَّى الكَرْم خَمْرَه ــــ وحَبِيبٍ يتمنَّى الكَأْس ثَغْرَه
الْتَقَــــتْ عينى به أَوَّلَ مــرة ــــ فعَرَفْت الْحُبَّ من أَوَّلِ نَظْرَه

وصحيح أن شاعرنا على محمود طه أدرك أهميــة الاطلاع على كتاب الطبيعة وتصفحه عن طريق الرحيل الكثير ، ولكنك تقف معه فى الواقع عند سطح الأشياء وبريقها الخلاب ولا تنفذ معه إلى أعماقها ، ونحن معذورون حين نقول ذلك الآن ، لأننا كنا منذ قليل مع شوقى فى تصويره للطبيعة ، فأنت مع على محمود طه مع الفكر الأنيق الرشيق ، ومع شوقى مع الفكر الرحيب العميق ، وإن اشترك الشاعران فى ذلك الشىء الهام الذى يميز شعر الرحيل فى العصر الحديث ، وهو القصد إلى الرحيل من أجل ثراء الفن وتجديد فكره وروحه .

تقرأ الأبيات التى قالها للشاعر فى فينسيا وفى نهر الرين وفى مدينة كان وغيرها ، فلا تخرج إلا بهذا القصد وهذا الوقوف عند سطح الأشياء ، ولنتأمل قصيدته فى « خمر نهر الرين » :

كَنْزُ أَحْلامُك يا شاعِر فى هـــذا المكان
سِحْرُ أَنْغَامُك طَــرّافٌ بِهَاتِيكَ المغــــانى
فَجْرُ أَيَّامِك رفّافٌ على هَـــذِى المجَــانى
أَيُّها الشَّــاعِر هَــذَا الراين فَاصْدَحْ بالأَغانى

كُلّ حَىّ وجَمَــادٍ ها هُنَــا ... هاتِفٌ يُدْعُو المحبّ المحْسِنَا
يا أَخَا الرُّوح دعا الشوق بنـــا ... فاسْقِنَا من خمرة الرين اسْقِنَا

عالم الْفِتْنَــة يا شَاعِر أَمْ دُنْيَــا الخَيالِ
أَمُرُوجٌ عُلِّقَــــتْ بين سَحَابٍ وجِبـــالِ
ضَحِكَــتْ بين قُصـــورٍ كأَسَاطِير اللَّيَــالِى
هـــذه الجنَّـــة فَانْظُر أَىّ سِحْرٍ وجَمَــالِ

ويجب أن نذكر هنا أننا نتحدث عن شعر على محمود طه فى الرحيل ولا نتحدث عن شعره بوجه عام ، فإن له آيات خالدة فى المجالات الأخرى فيها الكثير من العمق والامتداد فى الأفق ، مثل قصيدته الرائعة فى رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم .

ويبدو لى أن بريق الحياة الأوربية قد بهر شاعرنا فلم يحوّل عنه بصره ، وكانت المذاهب الشعرية الداعية إلى اعتبار الشعر تصويراً خالصاً فى عنفوانها وبريقها الأخاذ هى أيضاً ، وأصبح التصوير فى الشعر صيحة العصر وبدعة الأيام ، وكان أن استجاب الشاعر لهذا الجو وخاصة فى رحلاته التى كان لابد أن يعود منها « بصور تذكارية » شعرية ، ولكنه لم يسرف فى التصوير ذلك الإسراف الذى نجده عند محمود حسن إسماعيل رحمه الله وغيره من الشعراء .

وفى أول رحلة للشاعر إلى أوربا فى صيف ١٩٤٦ ، نرى الماء يصدح والموجة عذراء ، والنغم سكراناً ، والفجر صائداً طارت بمهجته حورية

شقراء من حوريات اليم ، فى قصيدة نظمها أثناء رحلته بين الإسكندرية وبيروت فى طريقه إلى أوربا :

مَسْرَاكَ نُورٌ وأَنْسَامٌ وأَنْدَاءُ فَاخْفِقْ شِرَاعِى وطِرْ يَصْدَحْ لكَ الماءُ
يا أَيُّهَا الْقَلِقُ الحَيْرَانُ كَمْ أَمَلٍ تَشْدُو بِهِ مَوْجَةٌ فى الْبَحْرِ عذراءُ
يَحْدُوكَ بالنَّغَمِ السَّكْرانِ أَرْغنها فى مسبح ماؤُه زَهْرٌ وصَهْبَاءُ
أَمَا تَرَى الْبَحْرَ يَبْدُو فى مَفاتِنِه لِكُلٍّ حُبٍّ جَدِيدٍ فيه أَجْوَاءُ
وفَجْرُهُ صائدٌ طارَتْ بمهْجَتِهِ حورِيَّةٌ فى فِجَاجِ الْيَمِّ شقْرَاءُ

ولكن شاعرنا كما رأينا كان أكثر اعتدالا فى هذا الجانب ، فلم يصل إلى حد الإغراب فى التصوير الذى استمر الشعراء المحدثون يغرقون فيه شعرهم إغراقاً ، وبذلك فعلوا ما فعله أبو تمام بالبديع فى شعره حين التزمه فى جل أبياته التزاماً ، وأثقل به شعره إثقالا شديداً .

* * *

هكذا نأتى إلى ختام رحلتنا مع تلك الرحلة الطويلة المستمرة للشعر العربى وأقطابه منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث ، وكما ذكرت فى المقدمة فهذا البحث ليس مجرد عرض لجانب من جوانب الشعر العربى أو ظاهرة من ظواهره ، إنما هو برهان على نظرية الحركة المستمرة الدائبة فيه ، وصحيح أن الشعر الإنجليزى ارتحل إلى بلاد العالم الجديد ، وأن من شعرائه من له رحلاته إلى بعض البلاد ، ولكن الرحيل هو حياة الشعر العربى ، وهو حياة أقطابه كما رأينا .

بل إن القصيدة الجاهلية تنحل إلى مجموعة من الأغراض أو الموضوعات التى لا رابط بينها إذا لم تفهم فى ضوء الرحلة ، عندئذ سترى الخيط المتين الذى يربط بينها ، بل ستراها جميعاً وحدة عضوية واحدة ، والذين اتهموا القصيدة الجاهلية بالتفكك وتبعثر الموضوعات معذورون ، لأنهم لم يروها فى الإطار الصحيح ومن الوجهة الصحيحة ، إن رحيل المحبوبة ثم رحيل الشاعر

هما كل تركيب القصيدة الجاهلية التقليدية ، وفيها تنطوى كل موضوعاتها وأفكارها .

ومحال أن نفهم الشعر العربى فى تاريخه الطويل بدون أن نفهم البيئات الجغرافية الكثيرة التى حل بها فى العصور الوسطى وأيضاً فى العصور الحديثة ، لقد حـــل بمراكز الحضارة الرئيسية فى العصور الوسطى فى العراق والشام ومصر والأندلس ، وحل بامتداد الحضارة الحديثة فى بلاد العالم الجديد فى الأمريكتين فى العصور الحديثة ، ووراء كل هـــذه البيئات تاريخ طويل وظروف معقدة .

أما تاريخ أقطابه فقد رأينا الرحلة تشكل أهم الجوانب فى حياتهم إن لم تكن تشكل حياتهم كلها ، سواء كانت رحلة إرادية أم اضطرارية ، وكأنما كتب لهذا الشعر ولأقطابه أيضاً ألا يستقروا فى مكان ، فهو وهم دائماً كالطيور المهاجرة على مدى هذا التاريخ الطويل الذى شغله هذا الشعر والذى يبلغ أكثر من ألف وسبعمائة عام .

المــراجع

ابن خفاجة : الديوان — دار صادر ، بيروت ، ١٩٦١

ابن هانى : الديوان — دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤

أبو تمام : الديوان — دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤

أبو نواس : الديوان — دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٢

أحمد شوقى : الشوقيات — دار الكتاب العربى ، بيروت ، د . ت

البارودى : الديوان

البحترى : الديوان — ط ٣ دار المعارف بالقاهرة ، د . ت

الزوزنى : شرح المعلقات السبع — دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د. ت

الشنفرى : لامية العرب — دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د . ت

عروة بن الورد : ديوان عروة بن الورد والسموأل
بيروت ، دار صادر ، د . ت

على محمود طه : الديوان — بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٢

المتنبى :

النابغة : الديوان — دار المعارف ، القاهرة ، د . ت

محتويات الكتاب

صفحة

مقـــدمة ٣

١ – الرحيل فى مهد الشعر العربى ٧

٢ – رحيل الشعر العربى خارج مهده ٢٧

(١) الرحيل الكبير الأول (فى العصور الوسطى) ٢٩

[١] إلى المشرق العربى ٢٩

[٢] إلى الأندلس ٣٥

(ب) الرحيل الكبير الثانى إلى الأمريكتين فى العصور الحديثة ... ٣٧

٣ – رحيل الشعراء ٤١

(١) فى العصور الوسطى ٤١

[١] إلى مراكز السلطان الاقتصادى والسياسى ٤١

– أبو نواس ٤٦

– أبو تمام ٤٦

– البحترى ٤٨

– المتنبى ٥٠

[٢] إلى مركز الرسالة الإسلامية ٧١

(ب) فى العصر الحديث ٧٩

– محمود سامى البارودى ٨٠

– أحمد شوقى... ... ... ٨٦

– على محمود طه ١٠٤

رقم الإيداع ١٩٨٥/٥٠٧٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة